الشيخ عبد الحميد كشك

فضل الذكر والدعاء

دار البشير
القاهرة

دار البشير ـ القاهرة
للطباعة والنشر والتوزيع
١٤٥ طريق المعادي الزراعي ص.ب ١٦٩ المعادي . ت : ٥٢٤٣٦٠٨٧ . ٥٢٥٣٣٩٠

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾.

(الآية ٤١ من سورة إبراهيم)

﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ
وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾ ﴾.

(الآية ٢٨ من سورة نوح)

بين يدى الكتاب

إنما دفعنى للكتابة فى هذا الموضوع : ما لاحظته من الكثيرين الذين يريدون أن يعرفوا كيفية الذكر على هدى رسول الله ﷺ دون اختراع أو ابتداع ، فيسلكوا السبيل القويم على صواب وهدى ، فسألت الله أن يوفقنى للكتابة فى هذا الموضوع ، عسى أن ينفع به كل سالك سبيل الرشد .

ولقد جُلْت بعقلى ووجدانى فى كتاب الله الكريم وكتب السنة المطهرة ، وخرجت منها بهذه الأحكام التى تتعلق بذكر الله جل شأنه .

عبد الحميد كشك

ما هو الذكر ؟

الذكر : هو ما يجرى على اللسان والقلب من تسبيح الله ـ تبارك وتعالى ـ وتنزيهه وحمده ، والثناء عليه ، ووصفه بصفات الكمال ونعوت الجلال والجمال .

وقد أمر الله تعالى بالإكثار منه فقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً * وسبحوه بكرة وأصيلاً ﴾ . (الأحزاب : ٤١ ، ٤٢)

وأخبر أنه يذكر من يذكره ، فقال جل شأنه : ﴿ فاذكروني أذكركم ﴾ ، وقال في الحديث القدسي الذي رواه البخاري ومسلم : « أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه حين يذكرنى : فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه ، وإن تقرّب إليّ شبراً تقرّبت إليه ذراعاً ، وإن تقرّب إليّ ذراعاً تقربت إليه باعاً ، وإن أتانى يمشى أتيته هرولة » .

وأنه ـ سبحانه ـ اختص أهل الذكر بالتفرد والسبق ، فقال رسول الله ﷺ « سبق المفردون » قالوا : وما المفردون يا رسول الله ؟ قال : « الذاكرون الله كثيراً والذاكرات » رواه مسلم .

وأنهم هم الأحياء على الحقيقة .. فعن أبى موسى ـ رضى الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال : « مثل الذى يذكر ربه والذى لا يذكر : مثل الحى والميت » رواه البخارى .

والذكر رأس الأعمال الصالحة : مَنْ وُفّق له فقد أعطى منشور الولاية ،

ولهذا كان رسول الله ﷺ يذكر الله على كل أحيانه ، ويوصى الرجل الذى قال له : إن شرائع الإسلام قد كثرت علىّ فأخبرنى بشىء أتشبث به ، فيقول له : « لا يزال فوك ـ فمك ـ رطباً من ذكر الله » .

ويقول لأصحابه : « ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم ، وأرفعها فى درجاتكم ، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق ، وخير لكم أن تلقوا عدوكم ، فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : ذكر الله » رواه الترمذى وأحمد والحاكم .

والذكر سبيل النجاة ... فعن معاذ ـ رضى الله عنه ـ أن النبى ﷺ قال : « ما عمل آدمى عملاً قط أنجى له من عذاب الله من ذكر الله ـ عز وجلّ » رواه أحمد .

وقال أيضاً : « إن ما تذكرون من جلاله ـ عز وجل ـ من التهليل والتكبير والتحميد يتعاطفن حول العرش ، لهنّ دوىّ كدوىّ النحل ، يذكرون لصاحبهن ، أفلا يحب أحدكم أن يكون له ما يذكر به » .

فذكر الله فى الحقيقة استحضار عظمة الله ـ تعالى ـ وجلاله وكماله استحضاراً قلبياً يبعث على الخشية والمراقبة ، ولا بد أن يكون الذكر مصحوباً بالفكر ، كما قال تعالى :

﴿ إنّ فى خلق السّماوات والأرض واختلاف اللّيل والنّهار لآيات لأولى الألباب * الّذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكّرون فى خلق السّماوات والأرض ربّنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النّار ﴾
(آل عمران : ١٩٠ ، ١٩١)

وقد أمر الله عباده المؤمنين أن يذكروه كثيراً ، فقال عزّ من قائل : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبّحوه بكرة وأصيلاً ﴾ (الأحزاب : ٤١)

وفى صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ « سبق المفردون ، قالوا : وما المفردون يا رسول الله ؟ قال : الذاكرون الله كثيراً والذاكرات » .

قال النووى فى بيان الذكر الكثير : قال الإمام أبو الحسن الواحدى : قال ابن عباس : المراد يذكرون الله فى أدبار الصلوات وغدواً وعشياً وفى المضاجع ، وكلما استيقظ من نومه ، وكلما غدا أو راح ذكر الله تعالى .

وقال مجاهد : لا يكون من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات حتى يذكر الله قائماً وقاعداً ومضطجعاً أى على كل حال فى حركاته ومشيه وسكونه ونومه ، ومعنى ذلك أن يستحضر عظمة الله وجلاله وكماله فى جميع شئونه ، كما أخبر بذلك الصادق الأمين ﷺ وهو يجيب على سؤال جبريل : ما الإحسان ؟ قال : « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

وليس الذكر قاصراً على تحريك الألسنة والشفاه ، إنما الذكر على سبعة أنحاء . فذكر العينين البكاء ، وذكر الأذنين الإصغاء ، وذكر اللسان الثناء ، وذكر اليدين العطاء ، وذكر البدن الوفاء ، وذكر الروح الخوف والرجاء ، وذكر القلب التسليم والرضاء .

وقد أمر الله ـ جل ذكره ـ بأن يُذكر ذكراً كثيراً ، ووصف أولي الألباب الّذين ينتفعون بالنظر فى آياته بأنهم :

﴿ الّذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ﴾ (آل عمران : ١٩١)

﴿ والذّاكرين الله كثيراً والذّاكرات أعدّ الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً ﴾
(الأحزاب : ٣٥)

وقال مجاهد : لا يكون من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات حتى يذكر الله قائماً وقاعداً ومضطجعاً .

وسئل ابن الصلاح عن القدر الذى يصير به من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات ، فقال : إذا واظب على الأذكار المأثورة المثبتة صباحاً ومساء ، فى الأوقات والأحوال المختلفة ليلاً ونهاراً ، كان من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات .

وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ فى هذه

الآيات قال : إن الله ـ تعالى ـ لم يفرض على عباده فريضة إلا جعل لها حداً معلوماً ، وعذر أهلها في حال العذر غير الذكر ، فإن الله لم يجعل له حداً ينتهي إليه ، ولم يعذر أحداً في تركه إلا مغلوباً على تركه فقال : **﴿ فاذكُرُوا اللهَ قِيَاماً وقُعُوداً وعلى جُنُوبِكُم ﴾** (النساء : ١٠٣)

بالليل والنهار ، في البر والبحر ، وفي السفر والحضر ، والغنى والفقر ، والسقم والصحة ، والسر والعلانية ، وعلى كل حال .

والذكر يشمل كل الطاعات . قال سعيد بن جبير : كل عامل لله بطاعة فهو ذاكر لله . وأراد بعض السلف أن تخصص هذا العام فقصر الذكر على بعض أنواعه منهم عطاء حيث يقول :

مجالس الذكر هي مجالس الحلال والحرام ، كيف تشتري وتبيع ، وتصلي وتصوم ، وتنكح وتطلق ، وتحج ، وأشباه ذلك .

وقال القرطبي : مجلس ذكر يعني مجلس علم وتذكير وهي المجالس التي يُذكر فيها كلام الله وسنة رسوله وأخبار السلف الصالحين وكلام الأئمة الزهاد المتقدمين المبرأة عن التصنع والبدع والمنزهة عن المقاصد الرديّة والطمع .

* * *

فضل الإكثار من ذكر الله

أرشد الله عباده إلى الإكثار من ذكره .. كذلك جاءت الأحاديث النبوية الشريفة مبينة ما أعده الله للذاكرين من أجر عظيم ، وفضل عميم .

جاء في الحديث القدسي قوله تعالى : « لا يذكرني عبد في نفسه إلا ذكرته في ملإ من ملائكتي ، ولا يذكرني في ملإ إلا ذكرته في الملإ الأعلى » .

وروى أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ : « إن الله ـ عز وجل ـ يقول : أنا مع عبدي ، إذا هو ذكرني وتحركت بي شفتاه » رواه ابن ماجه .

والمعية هنا : دليل التكريم الإلهي ، والرفعة الربانية للعبد الذاكر ، وكفى بمعية الله شرفاً وقدراً .

ها هو ذا معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ يحدثنا فيقول : « إن آخر كلام فارقت عليه رسول الله ﷺ أن قلت : « أي الأعمال أحب إلى الله ؟ قال : أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله » .

وتعالَ معي يا أخي المسلم لنطوف هذه الطوفة المباركة ، ونلقى بنظرة على رجل رآه سيد المرسلين ﷺ ليلة المعراج وقد نال من الرفعة المكانة القصوى .

يقول ﷺ : « مررت ليلة أُسريَ بي برجل مغيب في نور العرش ، قلت : من هذا ؟ أهذا ملَك ؟ قيل : لا ، قلت : نبي ؟ قيل : لا ، قلت : من هو ؟ قال : هذا رجل كان في الدنيا لسانه رطب من ذكر الله ، وقلبه معلّق بالمساجد ، ولم يستسب لوالديه » رواه ابن أبي الدنيا .

وقد بلغ من مكانة الذكر عند الله تبارك وتعالى أنه قرنه بأصول الدين ، فجمع بينه وبين الوحدانية والصلاة والصوم والصدقة .

جاء في حديث جامع وشامل أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله أوحى إلى يحيى بن زكريا بخمس كلمات ، أن يعمل بهن ، ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن ، فكأنه أبطأ بهن ، فأتاه عيسى فقال : إن الله أمرك بخمس كلمات أن تعمل بهن ، وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن ، فإما أن تخبرهم وإما أن أخبرهم ، فقال : يا أخي لا تفعل فإني أخاف إن سبقتني بهن أن يخسف بي أو أعذب . قال : فجمع بني إسرائيل ببيت المقدس حتى امتلأ المسجد ، وقعدوا على الشرفات ثم خطبهم ، فقال : إن الله أوحى إليّ بخمس كلمات أن أعمل بهن ، وآمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن : أولهن : لا تشركوا بالله شيئاً ، فإن مثل من أشرك بالله كمثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بذهب أو ورق ثم أسكنه داراً فقال : اعمل وارفع إليّ ، فجعل يعمل ويرفع إلى غير سيده ، فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك ؟ فإن الله خلقكم ورزقكم فلا تشركوا به شيئاً . وإذا قمتم إلى الصلاة فلا تلتفتوا ، فإن الله يقبل بوجهه إلى وجه عبده ما لم يلتفت . وآمركم بالصيام ، ومثل ذلك كمثل رجل في عصابة معه صرة مسك كلهم يحب أن يجد ريحها ، وإن الصيام أطيب عند الله من ريح المسك . وآمركم بالصدقة ، ومثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فأوثقوا يده إلى عنقه وقربوه ليضربوا عنقه ، فجعل يقول : هل لكم أن أفدى نفسي منكم ؟ وجعل يعطي القليل والكثير حتى فدى نفسه . وآمركم بذكر الله كثيراً ، ومثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعاً في أثره حتى أتى حصناً حصيناً فأحرز نفسه فيه ، وكذلك العبد : لا ينجو من الشيطان إلا بذكر الله » رواه الترمذي .

* * *

أرأيت إلى البراعة في التشبيه ، وإلى علو الطبقة في التصوير ، وكيف ضرب الحديث لكل ركن من هذه الأركان صورة مجسمة محددة المعالم . حتى وصل إلى الحصن الحصين والركن الركين ، وهو ذكر الله ؟

لقد جاء في هذا الحديث وصف الذكر على أنه حصن .. وحصن من أي شيء ؟ من الشيطان . وهل هناك حصن أقوى من هذا الذي يقي صاحبه ويحميه من كيد الشيطان : إنسياً أو جنياً ؟

قال سبحانه عن المؤمنين ﴿ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِم ﴾

(آل عمران : ١٣٥)

وليس هناك شك في أن العبد الذي يستحضر عظمة الله في قلبه ، ويراقب هيمنة سلطانه الأعلى على نفسه ـ لا شك أنه عبد محفوظ بالعناية .

قال تعالى : ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُبْصِرُونَ ﴾ (الأعراف : ٢٠٠ ، ٢٠١)

هذا ، وقد جاء في الحديث الشريف ما يفيد أن الذكر أحد أربعة أشياء يقوم عليها خير الدنيا والآخرة .

قال رسول الله ﷺ : « أربع من أعطيهن فقد أعطي خيري الدنيا والآخرة : قلباً شاكراً ، ولساناً ذاكراً ، وبدناً على البلاء صابراً ، وزوجة لا تبغيه حوباً[1] في نفسها وماله » رواه الطبراني .

وروى عن معاذ ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ أن رجلاً سأله فقال : « أي المجاهدين أعظم أجراً ؟ قال : أكثرهم لله ـ تبارك وتعالى ـ ذكراً ، قال : فأي الصالحين أعظم أجراً ؟ قال : أكثرهم لله ـ تبارك وتعالى ـ ذكراً ، ثم ذكر الصلاة والزكاة والحج والصدقة ، كل ذلك ورسول الله ﷺ يقول : أكثرهم لله ـ تبارك وتعالى ـ ذكراً ، فقال أبو بكر لعمر : يا أبا حفص ، ذهب الذاكرون بكل خير ، فقال رسول الله ﷺ : أجل » رواه أحمد والطبراني .

لقد دل هذا الحديث الشريف على أن معيار التفضيل : هو كثرة الذكر

(١) حوباً : أي إثماً .

مقترناً بالعبادة ، فكلما كثر ذكر العبد مع أداء الفريضة ازداد فضلاً واغتنم خيراً .

وهاهى ذى صحابية جليلة : أم أنس بن مالك ـ رضى الله عنهما ـ تسأل رسول الله ﷺ الوصية ، فيوصيها بهذه الأشياء .. قال لها : « اهجرى المعاصى فإنها أفضل الهجرة ، وحافظى على الفرائض فإنها أفضل الجهاد ، وأكثرى من ذكر الله فإنك لا تأتين الله بشىء أحب إليه من كثرة ذكره » رواه الطبرانى .

فإياك يا أخى والغفلة عن ذكر الله ، واحذر أن تفوتك ساعة تكون فيها غافلاً عن ذكره ـ تبارك وتعالى ـ فقد روى معاذ بن جبل ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ « ليس يتحسر أهل الجنة إلا على ساعة مرت بهم لم يذكروا الله ـ تعالى ـ فيها » رواه الطبرانى .

* * *

فضل مجالس الذكر

رغب الإسلام فى الاجتماع على ذكر الله فى صورة تليق بجلال الذكر ، ولا تخرج عن حدود ما رسمه الشرع الحكيم فى قوله تعالى :

﴿ واذْكُر ربَّكَ فى نفسكَ تضرُّعاً وخِيفَةً ودُونَ الجَهْرِ من القَوْلِ بالغُدُوِّ والآصَالِ ولاَ تكُن من الغَافِلينَ ﴾ (الأعراف : ٢٠٥)

ومجالس الذكر تغشاها الرحمة ، وتنزل بأصحابها السكينة ، وتحف بها الملائكة المكرمون .

جاء فى الحديث الشريف أن النبى ﷺ قال : « إن لله ملائكة ، يطوفون فى الطريق يلتمسون أهل الذكر ، فإن وجدوا قوماً يذكرون الله تنادوا : هلموا إلى حاجتكم ، فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا ، قال : فيسألهم ربهم ـ وهو أعلم بهم ـ ما يقول عبادى ؟ قال : يقولون : يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك ، قال فيقول : هل رأونى ؟ قال : فيقولون : لا والله يا رب ، ما رأوك . قال : فيقول : كيف لو رأونى ؟ قال : يقولون : لو رأوك كانوا أشد لك عبادة ، وأشد لك تمجيداً ، وأكثر لك تسبيحاً . قال : فيقول : فما يسألونى ؟ قال : يقولون : يسألونك الجنة ، قال : فيقول : وهل رأوها ؟ قال : يقولون : لا . والله يا رب ما رأوها . قال : فيقول : فكيف لو رأوها ؟ قال : يقولون : لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصاً ، وأشد لها طلباً ، وأعظم فيها رغبة . قال : فَمِمَّ يتعوذون ؟ قالوا : يتعوذون من النار ، قال : فيقولون : وهل رأوها ؟ قال : يقولون : لا والله ما رأوها ، قال :

فيقول : فكيف لو رأوها ؟ قال : يقولون : لو رأوها كانوا أشد منها فراراً ، وأشد لها مخافة . قال فيقول : أشهدكم أنى قد غفرت لهم . قال : يقول ملك من الملائكة : فيهم فلان ليس منهم ، إنما جاء لحاجة ، قال : « هم القوم لا يشقى بهم جليسهم » رواه البخارى .

هذا ، وقد خرج النبى ﷺ ذات يوم على حلقة من أصحابه ، فقال : « ما أجلسكم ؟ قالوا : جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام ، ومنّ به علينا ، قال : آلله ما أجلسكم إلا ذلك ؟ قالوا : آلله ما أجلسنا إلا ذلك ، قال : أما إنى لم أستحلفكم تهمة لكم ، ولكن أتانى جبريل فأخبرنى أن الله ـ عز وجل ـ يباهى بكم الملائكة » رواه مسلم .

وعن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال : « يقول الله ـ عز وجل ـ يوم القيامة : سيعلم أهل الجمع من أهل الكرم ، فقيل : ومَنْ أهل الكرم يا رسول الله ؟ قال : أهل مجالس الذكر » رواه أحمد .

* * *

لقد بلغ من مكانة الذكر فى قلوبهم أنهم كانوا يجعلونه بمثابة الإيمان ، وينزلونه منزلة الإيمان .

عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال : كان عبد الله بن رواحة إذا لقى الرجل من أصحاب رسول الله ﷺ قال : تعال نؤمن بربنا ساعة . فقالها ذات يوم لرجل ، فغضب الرجل ، فجاء إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ، ألا ترى إلى ابن رواحة يرغب عن إيمانك إلى إيمان ساعة ؟ فقال ﷺ : « يرحم الله ابن رواحة ، إنه يحب المجالس التى تتباهى بها الملائكة » رواه أحمد .

وعنه أيضاً ـ رضى الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ قال : « ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله ـ عز وجل ـ لا يريدون بذلك إلا وجهه ، إلا ناداهم مناد من السماء : أن قوموا مغفوراً لكم ، قد بدلت سيئاتكم حسنات » رواه أحمد .

ورُوى عن أنس ـ رضى الله عنه ـ أيضاً عن النبى ﷺ قال : « إن لله سيارة من الملائكة يطلبون حلق الذكر ، فإذا أتوا عليهم حفوا بهم ، ثم يقفون وأيديهم إلى السماء ، إلى رب العزة ـ تبارك وتعالى ـ فيقولون : ربنا أتينا على عباد من عبادك يعظمون آلاءك ، ويتلون كتابك ، ويصلون على نبيك محمد ﷺ ويسألونك لآخرتهم ودنياهم ، فيقول الله تبارك وتعالى : غشوهم رحمتى ، فهم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم » رواه البزار .

وقد مر رسول الله ﷺ بعبد الله بن رواحة ، وهو يذكر أصحابه ، فقال رسول الله ﷺ : « أما إنكم الملأ الذين أمرنى الله أن أصبر نفسى معكم ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ **واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً** ﴾ (الكهف : ٢٨)

أما إنه ما جلس عدتكم إلا جلس معهم عدتهم من الملائكة : إنْ سبحوا الله ـ تعالى ـ سبحوه ، وإنْ حمدوا الله حمدوه ، وإنْ كبروا الله كبروه ، ثم يصعدون إلى الرب ـ جل ثناؤه ـ وهو أعلم بهم ، فيقولون : ياربنا : عبادك سبحوك فسبحنا ، كبروك فكبرنا ، وحمدوك فحمدنا ، فيقول ربنا جل جلاله : يا ملائكتى أشهدكم أنى قد غفرت لهم » .

وقال رسول الله ﷺ : « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا ، قالوا : وما رياض الجنة يا رسول الله ؟ قال : حلق الذكر ، فإن لله تعالى سيارات من الملائكة يطلبون حلق الذكر ، فإذا أتوا عليهم حفوا بهم » .

وعن أبى سعيد الخدرى وأبى هريرة رضى الله عنهما أنهما شهدا على رسول الله ﷺ أنه قال : « لا يقعد قوم يذكرون الله تعالى إلا حفتهم الملائكة ، وغشيتهم الرحمة ، ونزلت عليهم السكينة ، وذكرهم الله فيمن عنده » .

* * *

آداب الذكر

أما وقد علمنا فضل مجالس الذكر والاجتماع عليه ، فإنه ينبغي أن نعلم أموراً خاصة بمراعاة الذكر .

والمقصود من الذكر : تزكية الأنفس ، وتطهير القلوب ، وإيقاظ الضمائر .

وإلى هذا تشير الآية الكريمة : ﴿ وأقم الصلاةَ إنَّ الصلاةَ تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر ﴾ (العنكبوت : ٤٥)

أي أن ذكر الله في النهي عن الفحشاء والمنكر : أكبر من الصلاة ، وذلك أن الذاكر حين ينفتح لربه جنانه ، ويلهج بذكره لسانه ، يمده الله بنوره ، فيزداد إيماناً إلى إيمانه ، ويقيناً إلى يقينه ، فيسكن قلبه للحق ويطمئن به :

﴿ الذين آمنوا وتطمئنُّ قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئنُّ القلوب ﴾
(الرعد : ٢٨)

وإذا اطمأن القلب للحق اتجه نحو المثل الأعلى ، وأخذ سبيله إليه ، دون أن تلفته عنه نوازع الهوى ، ولا دوافع الشهوة .. ومن ثَمَّ : عظم أمر الذكر ، وجلَّ خطره في حياة الإنسان .

ومن غير المعقول أن تتحقق هذه النتائج بمجرد لفظ يلفظه اللسان ، فإن حركة اللسان قليلة الجدوى ، ما لم تكن مواطئة للقلب وموافقة له .

وقد أرشد الله ـ تبارك وتعالى ـ إلى الأدب الذي ينبغي أن يكون عليه المرء أثناء الذكر فقال :

﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴾ (الأعراف : ٢٠٥)

وهذه الآية الكريمة تشير إلى أنه يستحب أن يكون الذكر سراً لا ترتفع به الأصوات .

وقد سمع رسول الله ﷺ جماعة من الناس رفعوا أصواتهم بالدعاء في بعض الأسفار فقال : « يا أيها الناس : اربعوا على أنفسكم ، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً ، إن الذي تدعونه سميع قريب ، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته .... » .

كما تشير أيضاً إلى حالة الرغبة والرهبة التي يحسن بالإنسان أن يتصف بها عند الذكر .

كذلك من الأدب : أن يكون الذاكر نظيف الثوب ، طاهر البدن ، طيب الرائحة ... فإن ذلك مما يزيد النفس نشاطاً .

والأفضل أن يستقبل القبلة ، فإن خير المجالس : ما استقبل به القبلة .

وللذكر آداب يجب مراعاتها ، اجتمعت هذه الآداب في قوله تعالى :

﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴾ (الأعراف : ٢٠٥)

إذ إن خشوع القلب متوقف على خشوع الجوارح ، فيستحب للذاكر الله أن يجلس مستقبلاً القبلة كهيئة التشهد في الصلاة ، وأن يستحضر عظمة الله حتى يكون بين اللسان والقلب توافق وتجاوب فيخشع القلب ويصدق اللسان .

روى عن عطاء رضي الله عنه : من صلى الصلوات الخمس بحقوقها فهو داخل في قوله تعالى : ﴿ والذاكرين الله كثيراً والذاكرات ﴾ .

وقد جاء في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أيقظ الرجل أهله من الليل فصليا أو صلى ركعتين جميعاً ، كتبا في الذاكرين الله كثيراً والذاكرات » هذا حديث مشهور رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه في سننهم .

* * *

أنواع الذكر

ومن تتبع الكتاب والسنة وجد ما يلي :

أن الذكر يتمثل بثلاث نواحٍ :

١ ـ ناحية عامة وهى استحضار نية العمل لوجه الله فى كل ما يفعله المسلم ، وذلك ذكر .

٢ ـ ناحية أساسية هى الصلاة فروضها وسننها ، وبدونها لا يكون الإنسان ذاكراً ، وبإكمالها يكون من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات .

٣ ـ ناحية متممة وهى الأذكار المأثورة باختلاف الأحوال والحالات والأوقات والمناسبات .

أما الناحية الأولى وهى استحضار النية فإن نية المرء تعتبر عبادة ما دام ينوى بعمله وجه الله ـ تعالى ـ والتقرب إليه ، ولذا قال ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى » . وقال : « إذا أنفق المسلم على أهله نفقة وهو يحتسبها كانت له صدقة » .

فإذا تحولت النية من الخير إلى الشر ، وعزم صاحبها على تنفيذ ما نوى فإن الله يحاسبه على عزمه وتصميمه . وهذه الآيات البينات تبين لنا تلك القضية :

﴿ إنّا بلوناهم كما بلونا أصحابَ الجنّة إذ أقسموا ليصرمُنّها مُصبحين ، ولا يستثنون * فطاف عليها طائفٌ من ربّك وهم نائمون * فأصبحت كالصّريم * فتنادوا مُصبحين * أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين * فانطلقوا وهم

يتخافتون * أن لا يدخلنّها اليومَ عليكم مسكينٌ * وغدوا على حردٍ قادرين * فلمّا رأوها قالوا إنّا لضالّون * بل نحن محرومون * قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبّحون * قالوا سبحانَ ربّنا إنّا كنّا ظالمين * فأقبلَ بعضهم على بعض يتلاومون * قالوا يا ويلنا إنّا كنّا طاغين * عسى ربّنا أن يبدلنا خيراً منها إنّا إلى ربّنا راغبون ﴾ (القلم ١٧ ـ ٣٢)

وأما من الناحية الثانية ، وهى الصلاة : فإن الصلاة كلها ذكر ، ولذلك قال تعالى : ﴿ وأقم الصّلاةَ لذكرى ﴾ .

وقال تعالى : **﴿ إذا نودىَ للصّلاةِ من يوم الجُمُعةِ فاسعَوا إلى ذكرِ الله وذروا البيع ﴾** (الجمعة : ٩)

وبمقدار ما يحسن الإنسان فيها يكون ذاكراً ، وبمقدار ما يسىء أو ينقص يكون غافلاً .

قال تعالى فى وصف المنافقين : **﴿ وإذا قاموا إلى الصّلاة قاموا كسالَى يُراءون النّاس ولا يذكرون الله إلاّ قليلاً ﴾** (النساء : ١٤٢)

* * *

ومن تأمل الصلاة وجد أن دعاء الافتتاح فيها ذكر ، وفى القيام ذكر ، وقراءة القرآن ذكر ، وفى الركوع ذكر ، وفى القيام منه ذكر ، وفى السجود ذكر ، وفى القعدتين ذكر ، وأورادها الراتبة بعدها ذكر .

فإذا ما أدى الإنسان الصلوات كلها فرائضها وسننها وما سنّ فيها وبعدها وقبلها فإن ذلك وحده يجعله من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات . وقد روى عن النووى ما يشير إلى ذلك .

فإذا ما أقام فريضة الصبح ونافلتها بين الفجر والشمس ، وأقام سنة الضحى بين الشمس والزوال ، وأقام سنة الظهر القبلية ، وفريضة الظهر وسنتها البعدية بين الزوال والعصر ، وأقام العصر فى وقتها ، والمغرب وسننها كذلك ، والعشاء

وسننها ، ثم القيام والتهجد والوتر ، كان لا شك من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات .

قال عليه السلام : « من قام بعشر آيات لم يُكتب من الغافلين ، ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ، ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين » .

وأما الناحية الثالثة ، وهي الأذكار المأثورة : فإنه يُسَنُّ للمؤمن أن يذكر الله على كل حال ، فقد كان رسول الله ﷺ يذكر الله على كل أحواله . وهذا الباب ليس فيه تحديد ، بل على المسلم أن يذكر الله بشكل مطلق ولا يزال لسانه رطباً من ذكر الله .

قال ﷺ : « جددوا إيمانكم ، قيل : يا رسول الله كيف نجدد إيماننا ؟ قال : أكثروا من ذكر لا إله إلا الله » .

وقال مولانا تبارك اسمه : ﴿ في بيوتٍ أذنَ اللهُ أن تُرفَعَ ويُذكَرَ فيها اسمُهُ يُسبِّحُ له فيها بالغُدُوِّ والآصالِ * رجالٌ لا تُلهيهم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذكرِ اللهِ وإقامِ الصلاةِ وإيتاءِ الزكاةِ يخافونَ يوماً تتقلَّبُ فيه القلوبُ والأبصارُ ﴾
(النور : ٣٦ ، ٣٧)

ومما يجب التنبيه عليه أن المسلم يختار الأمر الوسط دون إفراط أو تفريط ، وهذه سنة الإسلام في تشريعاته لا يعرف الإسراف ولا التقتير ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يُسرِفوا ولم يَقتُروا وكان بين ذلك قَواماً ﴾ . (الفرقان : ٦٧)

ولذا فإن الله سبحانه يأمر بذكره بالكيفية التي لا تعطل مصالح العباد وقضاء حوائجهم ، وتفريج كروبهم وإغاثة ملهوفهم ، وفي الوقت نفسه فإن الإسلام ينهى عن الغفلة ، ويوصي بأن يظل القلب حاضراً مع الله ، يغذيه اللسان بذكر الله . قال ﷺ : « مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه كمثل الحي والميت » .

﴿ الذين آمنوا وتَطمئنُّ قلوبُهم بذكرِ اللهِ ألا بذكرِ اللهِ تَطمئنُّ القلوبُ ﴾
(الرعد : ٢٨)

قال ﷺ : « ما قعد قوم مقعداً لم يذكروا الله فيه ، ولم يُصلُّوا على النبي إلا كان عليهم حسرة يوم القيامة ، فإن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم » .

وقال ﷺ : « ما جلس قوم مجلساً لم يذكروا الله ـ تعالى ـ فيه إلا كان عليهم ترة ، وما من رجل يمشي طريقاً فلم يذكر الله ـ عز وجل ـ إلا كان عليه ترة » .

ومن فضل الله ـ تعالى ـ على عباده ورحمته بهم أنه لم يكلفهم بما لا يطيقون ، ولم يشق عليهم فيما أمرهم به ، فقد وردت في الذكر صيغ جامعة موجزة في مبناها ، عظيمة في أجرها وثوابها لمن ذكر الله بها .

عن جويرية أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ أن النبي ﷺ خرج من عندها بكرة حين صلى الصبح وهي في مسجدها ثم رجع بعد أن أضحى وهي جالسة فقال : « ما زلت اليوم على الحال التي فارقتك عليها ؟ قالت : نعم ، فقال النبي ﷺ : « لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن : سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضاء نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته » رواه مسلم .

وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « من قال حين يصبح : ﴿ فسبحانَ اللهِ حينَ تُمسونَ وحينَ تُصبِحونَ وله الحمدُ في السموات والأرضِ وعشياً وحينَ تُظهِرونَ * يُخرِجُ الحيَّ من الميِّتِ ويُخرِجُ الميتَ من الحيِّ ويُحيي الأرضَ بعدَ موتِها وكذلك تُخرَجونَ ﴾ (الروم : ١٧ ، ١٨) أدرك ما فاته في يومه ذلك ، ومن قالها حين يمسي أدرك ما فاته في ليلته » رواه أبو داود .

وهناك أذكار رأينا في ذكرها التسهيل على العباد حتى لا يُحرموا من ذلك الخير العظيم والبركة والفضل .

من هذه الأذكار الاستغفار ، وهو أن يقول العبد : أستغفر الله ، أو أن يقول : أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد

وهو على كل شيء قدير ، فإن من قالها في يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة ، ومحيت عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه .

وكلنا نعلم أن هناك كلمتين خفيفتين على اللسان ولكنهما ثقيلتان في الميزان وهما : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم .

كما لا يفوتنا أن نذكر وصية الخليل إبراهيم التي قالها للنبي ليلة المعراج : « يا محمد أقرىء أمتك مني السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة ، عذبة الماء ، وأنها قيعان وغراسها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر » .

قال النبي ﷺ : « لا حول ولا قوة إلا بالله كنز من كنوز الجنة » .

* * *

الذكر شكر

اعلم بأن الذكر والشكر قرينان متلازمان .

جاء في الحديث القدسي الجليل : « يا ابن آدم ، إنك إذا ذكرتني شكرتني ، وإذا نسيتني كفرتني » .

وهذا مصداق قوله تعالى : ﴿ فاذكُرُوني أذكُرْكُم واشكُرُوا لِي وَلاَ تكفُرون ﴾
(البقرة : ١٥٢)

عن زيد بن أسلم أن موسى عليه السلام قال : يا رب كيف أشكرك ؟ قال له ربه : « تذكرني ولا تنسني ، فإذا ذكرتني فقد شكرتني ، وإذا نسيتني فقد كفرتني » .

قال الحسن البصري ، وأبو العالية ، والسدي ، والربيع بن أنس : « إن الله يذكر من يذكره ، ويزيد من شكره ، ويعذب من كفره » .

وقال بعض السلف في قوله : ﴿ اتقُوا اللهَ حقَّ تُقَاته ﴾ (آل عمران : ١٠٢)

قال : هو أن يُطاع فلا يُعصى ، ويذكر فلا يُنسى ، ويُشكر فلا يُكفر .

وذكر ابن أبي حاتم : عن مكحول الأزدي قال : قلت لابن عمر : « أرأيت قاتل النفس وشارب الخمر والسارق والزاني يذكر الله ، وقد قال الله تعالى : ﴿ فاذكُرُوني أذكُرْكُم ﴾ ؟ قال : إذا ذكر الله هنا ، ذكره الله بلعنته حتى يسكت .

وقال الحسن البصري : في قوله ﴿ فاذكُرُوني أذكُرْكُم ﴾ قال : « اذكروني

لطفك ملجأ ولعلني عن بابه لا أطرد
ة أقضي بها دَيناً عليّ به جلالك يشهدُ

في نفسه ذكرته في نفسي ، ومن ذكرني في ملأ ، ذكرته في ملأ خير منه » .
وروى الإمام أحمد عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « قال الله عز

يا رب ! ما لي غير
يا رب ! هَبْ لي تو

وجل : يا ابن آدم ، إن ذكرتني في نفسك ذكرتك في نفسي ، وإن ذكرتني في ملأ ذكرتك في ملأ من الملائكة ـ أو قال في ملأ خير منه ـ وإن دنوت مني شبراً دنوت منك ذراعاً ، وإن دنوت مني ذراعاً دنوت منك باعاً ، وإن أتيتني تمشي أتيتك هرولة » صحيح الإسناد أخرجه البخاري من حديث قتادة ، وعنه قال قتادة : « الله أقرب بالرحمة » .

وقوله : ﴿ واشكُرُوا لي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ أمر الله تعالى بشكره ووعد على شكره بمزيد الخير فقال : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُم لَئِن شَكَرْتُم لَأَزِيدَنَّكُم وَلَئِن كَفَرْتُم إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيد ﴾ (إبراهيم : ٧)

وروى الإمام أحمد : عن أبي رجاء العطاردي قال : خرج علينا عمران بن حصين وعليه مطرف من خز لم نره عليه قبل ذلك ولا بعده ، فقال : إن رسول الله ﷺ قال : « من أنعم الله عليه نعمة ، فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على خلقه » وقال روح مرة : « على عبده » .

قُمْ في الدُّجى يا أيها المتعبِّد حتّى متّى فوق الأسرّة ترقد
قُمْ ، وادْعُ مولاكَ الذى خلقَ الدُّجى والصبح ، وامضِ فقد دعاكَ المسجدُ
واستغفرِ اللهَ العظيمَ بذلّةٍ واطلبْ رضاهُ ، فإنه لا يحقدُ
واندمْ على ما فاتَ ، واندبْ ما مضى بالأمس ، واذكُرْ ما يجيء به الغَدُ
واضرعْ وقُلْ : يارَبِّ عفوكَ إنني من دُونِ عفوكَ ليس لي ما يعضدُ

أنت الخبيرُ بحال عبدكَ إنّهُ بسلاسلِ الوزْرِ الثقيلِ مقيّدُ
أنت المجيبُ لكلِّ داعٍ يلتجيء أنت المجيرُ لكلِّ مَنْ يستنجدُ
من أى بحرٍ غير بحرِكَ نستقي ؟ ولأى بابٍ غير بابِكَ نقصدُ ؟

وإذا كان الشكر لله يتحقق في ذكره له ، فإن القلب الذاكر لربه شاكر له ، وله مواصفات . فمن مواصفات القلب الذاكر : أنه قلب رباني ، إذا أحب أحب لله ، وإذا أبغض أبغض لله ، وإذا أعطى أعطى لله ، وإذا منع منع في الله ، فكل أحواله لله .

قال ﷺ : « من أحب لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ، ومنع لله ، فقد استكمل الإيمان » .

الحب في الله ثمرة من ثمرات الذكر

ولما كان الحب في الله أساساً لكل خير وتعاون على كل بر ، وإخلاصاً في كل شيء ، ووفاءً صافياً ، فإننا نسجل هنا كلمة عن الحب في الله فنقول :

الحمد لله الذى ألف بين قلوب المؤمنين فأصبحوا بنعمته إخواناً ، والصلاة والسلام على رسوله محمد الذى ضرب للمؤمنين المثل الأعلى في الأخوة والوفاء ، حتى أن كل صحابي من صحابته الكرام كان يشعر أنه أقرب الناس إلى الرسول الكريم ﷺ وأحب الناس إلى قلبه العظيم .

يقول الإمام الغزالي رحمه الله : « إن المحبة لله هي الغاية القصوى ، والذروة العليا من الدرجات ، فما بعد إدراك المحبة أمر إلا وهو ثمرة من ثمارها ، وتابع من توابعها ، كالشوق والأنس والرضاء وأخواتها ، وما قبل المحبة مقام ، إلا وهو مقدمة من مقدماتها : كالتوبة والصبر والزهد وغيرها » .

وأما محبة الله تعالى فقد عزّ الإيمان بها ، ولا معنى لها إلا بالمواظبة على طاعة الله تعالى . وقد ذهب كثير من العلماء إلى أن الحب لله تعالى ولرسوله ﷺ فرض ، والحب يفسر بالطاعة ، فهي ثمرة له ، فلا بد أن يتقدم الحب ثم بعد ذلك يطيع من أحب .

والله تعالى يقول : ﴿ قُلْ إنْ كُنتُم تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُم اللهُ ﴾

(آل عمران : ٣١)

ويقول أيضاً : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لله ﴾ (البقرة : ١٦٥)

والرسول ﷺ يقول : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما » رواه أحمد .

وفي حديث آخر : « لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين » (متفق عليه)

وفي معرض التهديد والإنكار على المؤمنين سلوكهم المخالف للإيمان ، يبين الله عز وجل مكانة الحب لله ورسوله ، فيقول :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا آبَاءَكُم وإخْوَانَكُم أوْلِيَاءَ إن استَحَبُّوا الكُفْرَ عَلَى الإيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِنكُم فَأُولَئِكَ هُم الظَّالِمُونَ * قُل إنْ كَانَ آبَاؤُكُم وَأَبْنَاؤُكُم وَإخْوَانُكُم وَأَزْوَاجُكُم وَعَشِيرَتُكُم وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إلَيْكُم مِن اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِى القَوْمَ الفَاسِقِينَ ﴾

(التوبة : ٢٣ ، ٢٤)

ومن ذلك تبيّن لنا أن أصل الحب هو لله عز وجل ، وحب الرسول ﷺ هو من حب الله عز وجل ، كما يتبين لنا أن الحب الناشيء بين العبد والعبد ، إنما يقوم على أساس الحب في الله .

ولقد ورد في حديث أخرجه البخاري في فضائل الصحابة (باب مناقب الأنصار) ومسلم في الإيمان (باب الدليل على أن حب الأنصار ـ رضي الله عنهم ـ من الإيمان) عن البراء بن عازب ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ أنه قال في الأنصار : « لا يحبهم إلا مؤمن ، ولا يبغضهم إلا منافق ، من أحبهم أحبه الله ، ومن أبغضهم أبغضه الله » .

ويقول الرسول ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » (متفق عليه)

ومن هذا الحديث يتبين لنا أن الإيمان لا يكون كاملاً إلا إذا أحب المؤمن لأخيه ما يحب لنفسه ، والمحبة في الله تمزج الأرواح ، وتقرب القلوب ، فلا يخفى عن مسامعنا تلك القصة الشهيرة التي تظهر كيف تحول هذا الحديث الشريف إلى واقع في حياة من عرفوا الإسلام وطبقوه ، حيث أهدى إلى أحد المسلمين رأس شاة فإذا بهذا المسلم يقول :

إن أخي فلاناً أحق بها مني ، ثم ذهب وأعطاها له ، وإذا بالثاني يقول : إن أخي فلاناً أحق بها مني ، وهكذا حتى إلى سبعة من المسلمين ، وعادت إلى الشخص الأول ، وكان كل واحد منهم يعبر عن محبته لأخيه بأن يؤثره على نفسه ، حتى دارت هذه الصدقة دورتها على سبعة من المسلمين ، وكل واحد منهم يؤثر الآخر على نفسه .

ثم القصة الثانية التي تبين لنا كيف يكون الحب للآخرين في حالة الموت ، حيث أقبل الساقي بشربة ماء إلى أحد الجرحى في غزوة من الغزوات ، فأشار إلى جريح آخر يؤثره بشربة الماء على نفسه ، وهكذا أخذ الساقي ينتقل بين الجرحى حتى عاد إلى الأول ، فوجده قد فارق الحياة ، ثم إلى الثاني فوجده أيضاً قد فارق الحياة ، والثالث حتى آخرهم .

ولا تقتصر ثمرات المحبة فى الله على خير فى الدنيا فقط ، كأن يشعر المؤمن من تحليه بهذه الصفة الجليلة بحلاوة الإيمان ، كما أخبر بها رسول الله ﷺ فى الحديث الصحيح :

« ثلاث مَنْ كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى فى النار » (رواه البخارى)

هذا ولا تقتصر ثمرات الحب فى الله على الخير الذى يناله العبد من الدنيا ، ولكنها تكون أوضح ما يكون يوم القيامة ، ولقد وردت عدة أحاديث ، تبين فضل المتحابين وعلو منزلتهم ، وعظيم أجرهم . فنجد المتحابين فى الله من السبعة الذين يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله ، كما أنهم يكونون يوم القيامة على منابر من نور ، يغبطهم النبيون والصِّدِّيقون والشهداء ، فترى فى وجوههم يوم القيامة نوراً ، ولا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزنوا .

ويكفيهم ـ كما ورد فى الحديث الصحيح ـ محبة الله تعالى لهم ، فقد ورد : « أن رجلاً زار أخاً له فى قرية أخرى ، فأرصد الله تعالى على الطريق ملكاً ، فلما أتى قال : من تريد ؟ قال : أريد أخاً لى فى هذه القرية ، قال : هل لك عليه نعم تمنُّ بها عليه ؟ قال : لا ، غير أنى أحببته فى الله تعالى ، قال : إنى رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه » .

إن من المتعارف عليه أن الناس قد فُطروا على محبة أشباههم الذين تقترب ميولهم من ميولهم ، وطباعهم من طباعهم ، فكل إنسان يأنس إلى شكله ، كما أن كل طير يطير مع جنسه ، وقد رأى مالك ـ رضى الله عنه ـ حمامة وغراباً مجتمعين فتعجب ، وقال : اتفقا وليسا من شكل واحد ، فلما طارا تبين له أنهما أعرجان ، فقال : من هنا اتفقا !

وقد تبين بالاختبار والتجربة أن الناس لا تقوم بينهم الصحبة ، ولا تنمو الألفة ، ولا يتولد بينهم الحب إلا لوجود شبه فى الطباع والعادات ، فإن وجدت الصحبة ولم يوجد إلى جانبها التشابه ، لم تلبث عرى هذه المحبة أن

تنفك ، ولم يلبث الصاحبان أن ينفصلا .

إن الذين التقوا فى الحياة الدنيا على المصالح والمنافع ، تراهم يوم القيامة أعداء لبعضهم البعض ، أما الذين التقوا فى الحياة الدنيا على محبة الله فيكونون يوم القيامة أصدقاء وأحباء ، والله يرشدنا إلى ذلك فيقول :

﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ ﴾ (الزخرف : ٦٧)

وإذا كان العرج يجمع بين الطائرين على اختلاف فى الفصيلة ، فكيف لا يجمع الحب فى الله بين المؤمنين ؟

إن المحبة فى الله ترسى قواعد الحياة الاجتماعية الفاضلة السعيدة ، التى يشعر فيها كل فرد من الأفراد بأنه لبنة من بناء ، وعضو من جسم ، وجزء من كل ، نواجبه أن يكون متجاوباً متعاوناً مع إخوانه فى الله ، يتحابون ويتراحمون ، ويحرص كل منهم على مصلحة أخيه .

وبذلك يتحقق قول الرسول ﷺ : « مثل المؤمنين فى توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » (متفق عليه)

ولا شك أن محبة الخير للغير كمحبة الخير للنفس : فضيلة عزيزة المنال ، تحتاج إلى رياضة ومجاهدة ، ولا يبلغ مرتبة التحلى بها على وجهها إلا الشخص المؤمن الذى يطهر قلبه من الغل والحسد ، فإن الحسد يأكل الحسنات والطيبات كما تأكل النار الحطب .

ومن البدهى أنه لا محبة إلا بعد معرفة وإدراك ، إذ إن الإنسان لا يحب إلا ما يعرفه ويدركه ، والمدركات تنقسم إلى ما يوافق طبع الإنسان المدرك وما ينافيه ، فكل ما فى إدراكه سعادة وراحة ، فهو محبوب عند مدركه . ولما كان الحب تابعاً للإدراك والمعرفة فبالتالى ينقسم الحب بانقسام المدركات والحواس ، فلكل حاسة إدراك من المدركات .

وهناك الحاسة السادسة ، التى يُعبَّر عنها إما بالعقل أو النور أو القلب ، فالبصيرة الباطنة أقوى من البصر الظاهر ، والقلب أشد إدراكاً من العين ،

وجمال المعانى المدركة بالعقل أعظم من جمال الصور الظاهرة للأبصار ، فتكون لا محالة لهذا القلب بما يدركه من الأمور الشريفة الإلهية ، التى تجل عن أن تدركها الحواس أتم وأبلغ ، فيكون ميل الطبع السليم لها .

والمؤمن بالله متوازن الشخصية ، تلمح الاعتدال فى سلوكه ، وفى فكره ، وفى شعوره . متوازن لأن طاقته كلها تعمل وتأخذ نصيبها من الحياة ، متوازن لا يسبح فى برج عاجى من الأفكار والأحلام ، ويترك الواقع لأن قوته الحيوية ترده عن التحليق الفارغ ، وتوقظه لواقع الحياة ، متوازن لا يغرق فى متاع الأرض ، ولا يغرق فى عالم المادة لأن روحه المتفتحة الطليقة تنشله من هذه الوحدة ، متوازن بما فيه من ثقله الطينى ، فهو يستمتع بطيبات الحياة دون تكالب عليها ، وهو على استعداد دائم للتخلى عنها إذا دعا إلى ذلك داع من دواعى الجهاد فى سبيل الله .

المحب شخص متوازن ، لا تستطيره كل نظرية جديدة يسمعها ، حتى يزنها بميزانه ، ويتثبت لما فيها من الحق : ﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾ (الإسراء : ٣٦)

ولكنه أيضاً لا يجمد على كل قديم عنده ، فالجمود ليس من الإيمان ، والاعتراف بنعمة الله تقتضى إعمال الفكر الذى وهبه الله للإنسان للتدبر والمعرفة ، ومن الواجب أن يبحث الإنسان عن الحق ويتبعه حالما يثبت له أنه حق ، وهو بمقتضى إيجابيته وفاعليته شخص استقلالى النزعة ، استقلالى بمعنى أنه شاعر بوجوده ووزنه فى الحياة ، وعامل بمقتضى ذلك الشعور ، وهو لا يشعر بأهمية ذلك الشعور ، وهو لا يشعر بأهميته بوصفه فلاناً ابن فلان ، المعتز بماله من الحسب والنسب والقوة والمال ، وإنما يشعر بأهميته لأنه مؤمن ، مهتد إلى القوة الحقيقية فى هذا الكون ، ومعتز بهذا الإيمان ، وهذا الهدى يجعله قوة كونية فاعلة ، ومن هنا يحس بقدرة الإيمان الحقيقى ، ويقدر أهميته بهذا الميزان .

وحينئذ يكون استقلالى النزعة ، لأنه يحس أنه لا يستمد وجوده من أسرة ، ولا من وظيفة ، ولا من مجتمع ، ولكن من ذاته المهتدية بالله ، والمحبة له

وفيه ، وهو مع استقلاله بكيانه المنفرد شخص اجتماعى إلى أبعد الحدود ، حيث ما رُكّب فى طبع المؤمن من التعاون على البر والتقوى يقتضى بطبيعته الاجتماع بالناس ، وليس معنى ذلك أن يزعجهم برفع الحواجز كلها ، أو برفع التكاليف حيث أن الإيمان تهذيب للأخلاق ، هذا التهذيب قد جعل منه شخصاً حساساً ، صاحب ذوق ، لا يجعل من حبه للناس ذريعة لإزعاجهم وإقلاق راحتهم .

وليس طلب الوعد والمحافظة على الاستئذان للزيارة إقامة للحواجز ، وتعطيلاً للمودة ، بل هى حرص على المودة أكبر ، وإيثار للناس بالراحة ، ومنطق الحب ليس إلا الإيثار .

ومن المستحبات : استحباب إعلام الرجل من يحبه أنه يحبه .

وقد ورد عن النبى ﷺ أحاديث صحيحة ، يستفاد منها أن المسلم إذا أحب أخاً له فى الله ، فعليه أن يخبره ، فقد ورد فى سنن أبى داود والترمذى أن النبى ﷺ قال : « إذا أحب الرجل أخاه ، فليخبره أنه يحبه » قال الترمذى : هذا حديث صحيح .

كما ورد فى سنن أبى داود عن أنس رضى الله عنه أن رجلاً كان عند النبى ﷺ فمر رجل ، فقال : يا رسول الله ، إنى لأحب هذا ، فقال له النبى ﷺ « أأعلمته » ؟ قال : لا ، قال : أعلمه فلحقه فقال له : إنى أحبك فى الله ، فقال : أحبك الله الذى أحببتنى فيه .

وفى سنن أبى داود والنسائى عن معاذ بن جبل أن الرسول ﷺ أخذ بيده وقال : « يا معاذ والله إنى لأحبك ، أوصيك يا معاذ لا تدعن فى دبر كل صلاة أن تقول : اللهم أعنى ..على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك »

ومن هذا الحديث يتضح أن الذى يحب إنساناً ، يحب له الخير ، ويدله على طريق الخير ، كما يخبره أنه يحبه .

* * *

اذكر الله ولا تنس الموت

القلب الشاكر قلب ذاكر لله ، ولا ينسى لقاءه ، لأنه يعلم أنه من أحبَّ لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه .

يا نفسُ ، تُوبى ، فإنَّ الموت قد حانَا

واعْصِ الهوىَ ، فالهوى ما زالَ فتَّانا

فى كُلِّ يَومٍ لنَا ميتٌ نُشيِّعُه

ننسَى بمصرعِه آثارَ موتَانَا

يا نفسُ ما لى وللأموالِ أكنزُها

خلفى ، وأخرجُ من دُنياىَ عُرْيانا

ما بالُنَا نتعامَى عن مَصارعِنا

ننسَى بغفلتِنا مَنْ ليسَ ينسَانا

فكَمْ رأينَا أُناساً صالحين قَضَوْا

موتاً وقد سلبُوا ديناً وإيمانَا

واستبدلُوا الكُفْرَ بالإيمانِ ، وانفصلُوا

بسوءِ خاتمةٍ للموْتِ أعْيانا

أبعدَ خمسينَ قَدْ قضيتُها لعباً

قَد بانَ تقصيرُهَا قَدْ بان قَدْ بانا

أيـن الملوكُ وأبناءُ الملوكِ ومَنْ

كانتَ تخرُّ لهُ الأذقانُ إذْعانا

صاحتْ بِهم حادثاتُ الدَّهْر ، فانقلبوا

مُستبدلينَ من الأوطَانِ أوطَانا

أخلوْا منازلَ كان العزُّ مفرشها

واستفرشُوا حفراً غبراً ، وقيعانا

يا راكضاً فى ميادينِ الهوَى مَرِحاً

ورافلاً فى ثيابِ الغيِّ نَشْوانا

مضى الزمانُ ، وولَّى العمرُ فى لعبِ

يكفيكَ ما قد مضَى ، قد كَانَ ما كانَا

وعن حمزة بن عبد الله قال : شهدت أبا بكر الشاشى عند موته فقلت له : كيف حالك ؟ قال : كسفينة تدور على الغرق ، فلا أرى أأنجو بالسلامة ، وتأتى الملائكة بالبشارة : ﴿ أن لاَّ تخافُوا ولاَ تحزنُوا ﴾ ؟ (فُصِّلَتْ : ٣٠)

أم تغرق السفينة ، وتأتى الملائكة تقول : ﴿ لاَ بُشْرَى يَوْمَئذٍ للمُجْرِمين * وَيَقُولُونَ حجراً محجُوراً ﴾ ؟ (الفرقان : ٢٢)

أى بُعْداً بُعْداً ، فلا تصلح لنا يا خبيث ، يا عاصى ابك على ظلام قلبك ، فإنه يضىء ، إذا بكى السحاب على الرُّبى تبسمت . ويحك ! يقول أنا تائب وتتوقف انهض وبادر فتلاف خيراً فات ، إذا صدق التائب فى توبته ، أنسى الله كاتبيه ما كتبا ، وأوحى الله تعالى إلى الأرض : أن اكتمى على عبدى .

يارب قد تبت ، فاغفر زلتي كرماً
وارحم بعفوك من أخطأ ومن ندما
لا عدت أفعل ما قد كنت أفعله
عمري فخذ بيدي ، يا خير من رحما
هذا مقام ظلوم ، خائف ، وجل
لم يظلم الناس ، لكن نفسه ظلما
فاصفح بعفوك عمن جاء معتذراً
واغفر ذنوب مسيء ، طالما اجترما

واعلم يا ابن آدم أن الشيطان راصد يرصد جميع المقاصد :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ ﴾ (النساء : ٧١)

لا تسمعوا قوله فإنه كذاب أشر ، ولا تقبلوا نصحه فإنه غشاش ، إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير .

واعجبا لمن كان في ظهر أبيه آدم كيف يدخل ناراً وقودها الناس والحجارة ؟ يا ابن آدم إنما طردنا إبليس لأنه لم يسجد لأبيك ، فالعجب منك كيف صالحته وهجرتنا ! ؟ :

لا عذر لي ، قد أتى المشيب ... فليت شعري ، متى أتوب ؟
إبليس قد غرني ونفسي ... ومسّني منهما اللغوب
إذا انقضى للشقاء ذنب ... تجددت بعده ذنوب
ومن ورائي حلول قبر ... ساكنه مفرد غريب
ولست أدري إذا ... أتاني رسول ربي بما أجيب
أم أنا يوم الحساب ناج ... أم لي في ناره نصيب ؟
يا رب جد لي على رجائي ... بمنة منك ، لا أخيب

ويروى أن أخوين كان أحدهما عابداً ، والآخر مسرفاً على نفسه ، وكان العابد يتمنى أن يرى إبليس في محرابه ، فتمثل له يوماً وقال له : يا أسفا عليك ! ضيعت من عمرك أربعين سنة في حصر نفسك وإتعاب بدنك ، وقد بقي من عمرك مثل ما مضى ، فأطلق نفسك في شهواتها وتلذذ ، ثم تب بعد ذلك وعد إلى العبادة ، فإن الله غفور رحيم . فقال العابد : أنزل إلى أخي في أسفل الدار وأوافقه على الهوى واللذات عشرين سنة ، ثم أتوب وأعبد الله في العشرين التي تبقى من عمري . فنزل . وقال أخوه المسرف على نفسه : قد أفنيت عمري في المعصية ، وأخي العابد يدخل الجنة وأنا أدخل النار ، والله لأتوبن وأصعد إلى أخي وأوافقه في العبادة ما بقي من عمري ، فلعل الله يغفر لي ، فطلع على نية التوبة ، ونزل أخوه على نية المعصية ، فزلت رجله فوقع على أخيه فماتا جميعاً في السلم ، فحشر العابد على نية المعصية ، وحشر المسرف على نية التوبة .

فيا أيها المسلمون ، فرغوا قلوبكم للاعتبار فيما يجري في الليل والنهار ، كم من بعيد قرب ، وكم من قريب بعد ، جفاه الأهل والجار وكان حظ الأول الجنة ، وحظ الثاني النار ، فاعتبروا يا أولي الأبصار !

ندم العابد على تغيير نيته بلا شك وخاف ، وبكى على تفريطه بعد عبادته إذ زلّ وهفا ، يود لو أن صافي وده يرد ويرجع إلى الوفا ، وسيعلم أنه بنى على شفا جرف هار ، فاعتبروا يا أولي الأبصار .

أناس أعرضوا عنا ... بلا جرم ، ولا معنى
أساءوا ظنهم فينا ... ولا هم أحسنوا الظنا
فإن عادوا لنا عدنا ... وإن خانوا ، فما خنّا
وإن كانوا قد استغنوا ... فإنا عنهمو أغنى

إذا قال العبد : يا رب قد أذنبت ، قال له الله : يا عبدي ، وأنا قد سترت .

فإذا قال العبد : يا رب ، قد تبت ، قال له الله : يا عبدي وأنا قد قبلت .

سبحانك ربي ، ما أكرمك !

ما أحلمك ! ما أرحمك !

تهب الكثير ، وتجبر القلب الكسير .

لو يعلم المدبرون عنك ، كيف انتظارك لهم ، ورفقك بهم ، وشوقك لترك ذنوبهم ، لماتوا شوقاً إليك ، ولتقطعت أوصالهم من محبتك ، إذا كان هذا شأنك بالمدبرين عنك ، فكيف يكون شأنك بالمقبلين عليك ؟

سُبحانَكَ مَنْ خلقَ الأشياءَ مُقْتدراً ... ومَنْ يجودُ على العاصي ويسترُه
يُخفي القبيحَ ، ويُبدي كُلَّ صالحةٍ ... ويغمرُ العبدَ إحساناً ، ويشكُره
ويغفرُ الذنبَ للعاصي ، ويقبلُه ... إذا أنابَ ، وبالغفرانِ يجبُره
ومَنْ يلوذُ بـه فـي دَفْعِ نائبةٍ ... يعطيه من فضله عزاً ، وينصرُه
ولاَ يضيعُ مثقالاً لمجتهدٍ ... بل في المآلِ يُربيه ، ويدخرُه
ومَنْ يكُنْ قلبُه بالذنب قد دنسا ... فبالمدامعِ والتقوى يطهرُه
وليس للعبدِ تصريفٌ ، وإنَّ له ... مولاه ، إنْ شاءَ يُغنيه ويُفقرُه
فلا حذرٌ ينجّي العبدَ من قدرٍ ... يريده اللهُ ، أو أمرٍ يدبرُه
فنسألُ اللهَ حقّاً حُسْنَ خاتمةٍ ... عند المماتِ ، وصفواً لا يكدرُه

قال ﷺ : « إنما الأعمال بالخواتيم » فنسأل الله حسن الخاتمة .

قال منصور بن عمار رحمة الله عليه : كان لي أخ في الله يفتقدني ، ويزورني في شدة ورخاء ، وكنت أراه كثير العبادة والتهجد والبكاء ، ففقدته أياماً ، فقيل لي : هو ضعيف ، فسألت عن داره فأتيت الباب فطرقته فخرجت إليَّ ابنته ، فقالت : من تريد ؟ فقلت : فلاناً ، فدخلت ، واستأذنت لي ثم عادت وقالت لي : أدخل ، فدخلت فوجدته في وسط الدار وهو مضطجع على فراش ، وقد اسود وجهه ، وازرقت عيناه ، وغلظت شفتاه ، فقلت له وأنا خائف منه : يا أخي ، أكثر من قول لا إله إلا الله ، ففتح عينيه ونظر إليَّ شذراً ، وغشي عليه ، فقلت له ثانياً : يا أخي ، أكثر من قول لا إله إلا الله ، ففتح عينيه ، ونظر إليَّ شذراً وغشي عليه ، فقلت له ثالثاً : يا أخي أكثر من

قول لا إله إلا الله ، ولئن لم تقلها لا غسّلتُك ، ولا كفّنتك ولا صلّيتُ عليك ، ففتح عينيه وقال : يا أخي ، يا منصور ، هذه كلمة حيل بيني وبينها ، فقلت : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، ثم قلت له : يا أخي أين تلك الصلاة والصيام والتهجد والقيام ؟ فقال : يا أخي ، كل ذلك كان لغير وجه الله ، إنما كنت أفعل ذلك ليقال عني وأذكر به ، وكنت أفعل ذلك رياء الناس ، فإذا خلوت بنفسي ، أغلقت الباب ، وأرخيت الستور ، وشربت الخمور ، وبارزت ربي بالمعاصي ، ودمت على ذلك مدة ، فأصابني مرض أشرفت فيه على الهلاك ، فقلت لابنتي هذه : ناوليني المصحف ففعلت ، فأخذته فجعلت أقرأ فيه حرفاً حرفاً حتى بلغت سورة يس ، فرفعت المصحف وقلت : اللهم بحق هذا القرآن العظيم إلا ما شفيتني ، وأنا لا أعود إلى ذنبي أبداً ، ففرج الله عني ، فلما شفيت عدت إلى ما كنت عليه من اللهو واللذات ، والزهو ، وأنساني الشيطان العهد الذي كان بيني وبين ربي ، وبقيت على ذلك مدة من الزمان ، فمرضت مرضاً أشرفت فيه على الموت ، فأمرت أهلي فأخرجوني إلى وسط الدار على عادتي ، ثم دعوت بالمصحف فقرأت فيه ، ثم رفعته وقلت : اللهم بحرمة ما في هذا المصحف الكريم من كلامك القديم إلا ما فرّجت عني ، فاستجاب الله مني وفرّج عني ، ثم عدت إلى ما كنت عليه من الهوى والغي ، فوقعت في هذا المرض فأمرت أهلي فأخرجوني إلى وسط الدار كما تراني ، ثم دعوت بالمصحف لأقرأ فيه ، فلن يتبين لي فيه حرف واحد ، فعلمت أن الله سبحانه وتعالى قد غضب عليَّ ، فرفعت رأسي إلى السماء وقلت : اللهم بحرمة هذا المصحف إلا ما فرجت عني يا جبار الأرض والسماء ، فسمعت هاتفاً يقول ، ولم أرَ شخصه :

تتوبُ من الذنوبِ إذا مرضتَ ... وترجعُ للذنوبِ إذا برئتا
إذا ما الضرُّ مسّكَ أنتَ باكٍ ... وأخبثُ ما يكونُ إذا قويتا
فكَمْ من كُربةٍ نجّاكَ منها ... وكم كشفَ البلاءَ إذا بليتا
وكم غطّاكَ في ذنبٍ وعنه ... مدى الأيامِ جهراً قد نهيتا
أمَا تخشى بأن تأتي المنايا ... وأنت على الخطايا قد دهيتا

وتنسى فَضْلَ رَبٍّ ، جادَ فضلاً — عليك وَلا ارعويْتَ ، ولا خشيْتَا
وكم عاهدتَ ثم نقضتَ عَهْداً — وأنت لكلِّ معروفٍ نسيتَا
فَدارِكْ قبل نقلكَ عن ديارِكَ — إلى قبرٍ إليه قد نُعيتَا

يا أخا الإسلام : إن الله تعالى يقول فى الحديث القدسى الجليل : « لقد خلقتُ خلقاً ، ألسنتهم أحلى من العسل ، وقلوبهم أمرُّ من الصبر ، فبى حلفت ، لأتيحنهم فتنة تدع الحليم فيهم حيران ، أبى يغترون أم علىَّ يجترئون ؟ » .

وكان المسيح بن مريم ـ على نبينا وعليه الصلاة والسلام ـ يقول : « يا بنى إسرائيل ، لا تأتونى تلبسون ثياب الرهبان وقلوبكم قلوب الذئاب الضوارى ، ولكن البسوا ثياب الملوك ، وألينوا قلوبكم بخشية الله » .

أخا الإسلام :

وَدَعِ الكذوبَ فلا يكُنْ لك صاحباً — إنَّ الكذوبَ يشينُ حراً يصحبُ
يلقاكَ ، يقسمُ أنه بكَ واثقٌ — وإذا توارى عنك ، فهو العقربُ
يسقيكَ من طرَفِ اللسانِ حلاوةً — ويروغُ منك كما يروغُ الثعلبُ

إن ما رواه منصور بن عمار يذكرنا بالمدرسة الثعلبية التى تخرج الثعالب ، والتى حذر القرآن الكريم منها فى قوله جل شأنه : ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ * أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ (التوبة : ٧٥ ـ ٧٨)

اذكر اثنين : الله ، والموت

وانسَ اثنين : إحسانك إلى الناس ، وإساءة الناس إليك .

واحمد الله على اثنين : الإيمان والعافية ، ولا تأمن اثنين على اثنين ، لا تأمن رجلاً على امرأة ، ولا تأمن امرأة على سر .

ولما كنا قد تحدثنا عن ذكر الله ، بقى أن نتحدث عن ذكر الموت ، فنسيانه ضلال مبين . فالليل مهما طال فلا بدَّ من طلوع الفجر ، والعمر مهما طال فلا بد من دخول القبر . واعلم بأن الدنيا ساعة فاجعلها طاعة ، وأن النفس طماعة فعوِّدها القناعة .

نقول وبالله التوفيق : الحمد لله ، المستحق لغايات التحميد ، المتوحد فى كبريائه من غير تكييف ولا تحديد .

العلى ، القوى ، الولى ، الحميد .

الغنى ، المغنى ، المبدىء ، المعيد .

المعطى ، الذى لا يفنى عطاؤه ولا يبيد .

المانع ، فلا معطى لما منع ، ولا رادَّ لما يريد .

خلق الخلائق وسلكهم أحسن الطريق إلى الأمر الرشيد .

وصوَّرهم فأحسن صورهم ، وبشَّرهم فى الجنة بالنعيم والتخليد .

وبصَّرهم بعين الاعتبار ، وحذرهم من عذاب النار والوعيد .

وألزمهم شكره ، وضمن لهم من كنز فضله المزيد ، وحكم عليهم بالموت فما لأحد عنه محيص ولا محيد .

فكم أبكى خليلاً بفراق خليله ، وكم أيتم وليداً وشغله ببكائه وعويله .

فهو لا يبدى بفرط حزنه ولا يعيد ، هدم بالموت مشيد الأعمار ، وحكم بالفناء على أهل هذه الدار ، الأحرار منهم والعبيد ، أوحش المنازل من أقمارها ، ونفر طيور الأرواح عن أوكارها ، وعوضهم من لذة العيش بالتنغيص والتنكيد .

فالملك والمملوك ، والغنى والصعلوك ، تساوت قبورهم فى القفر والبيد .

فسبحان من أذل بالموت من الجبابرة كل جبار عنيد ، وكسر به من الأكاسرة كل بطل صنديد .

أخرجهم من سعة القصور إلى ضيق القبور ، وقطع حبال أمدهم المديد .

أخذ به الآباء والجدود ، والأطفال من المهود فأسكنهم اللحود ، وعفّر وجوههم في الصعيد ، وساوى فى الموت بين الصغير والكبير ، والغنى والفقير ، والمأمور والأمير ، والوالد والوليد : أفنى به الذكور والإناث ، فهم فى سجل الأجداث إلى يوم الوعيد .

أفلا يعتبر الغافل بمصرعهم ، وقد أفناهم الموت بأجمعهم ، وفرّق شملهم بالتبديد ؟

فكيف يغتر الإنسان وهو عالم بأن الله تعالى يملي للظالم ، حتى إذا أخذه لم يفلته ؟ ولم يكن عنه محيد ؟ ما كانت نفوسهم بذلك عالمة وهى من الموت غير سالمة ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ القُرى وَهِىَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ (هود : ١٠٢)

أين أهل المدن والحصون . أين أرباب المعانى وقصر مشيد ؟

أين الأمم الماضية ؟ أين أرباب القصور العالية ؟ حقّ عليهم الوعيد ، فلو عاينتهم فى قبورهم لعجبت من أمورهم ، قد غيّر البِلَى أحوالهم ، ومزق أوصالهم ، ولم يعرف منهم الأحرار من العبيد .

أما أصبح منهم ذو الشدة والبأس بعد القرب والإيناس فى ظلمة اللحود وحيداً ؟ أما وعظهم الموت بمن أخذ منهم شقيًا كان أو سعيداً ؟

أما أنذرهم قول الملك الحميد : ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ المَوْتِ بِالحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ ؟ (ق : ١٩)

ويحك نبّه نفسك ، واعمل لما تلقى غداً ، الموت يأتى وليس منه محيد .

إن كنت يا صاح نائماً فلا بد أن تنتبه في قبرك ، وأنت فيه وحيد :

« الناس نيام ، فإذا ماتوا انتبهوا ، فإذا ما انتبهوا ندموا ، فإذا ما ندموا لا ينفع الندم » ومن سكر بحب الدنيا كان أشد ممن سكر بالشراب ، إذ إن من سكر بالشراب يفيق بعد لحظات ، أما من سكر بحب الدنيا فلا يفيق إلا إذا اصطدم رأسه بجدار القبر فى معسكر الموتى .

﴿ وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الغُرُورِ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِن رَبِّكُم وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ ﴾ (الحديد : ٢٠ ، ٢١)

يا عاقلاً مَنْ لك ؟ إذا متُّ منك مَنْ كان يهوى صحبتك ، وحزت لحدك وحدك وأنت مفلس غريب وحيد .

دُنياكَ ساعاتٌ ، سراعُ الزوالِ وإنما العقبى خلودُ المآلِ

فهل تبيعُ الخُلْدَ يا غافلاً وتشترى دُنيا المنى والضَّلالِ ؟ !

دع دموعك تغسل ما ران على قلبك ، فأنت لا تدرى عن أهل المقابر من الشقى ومن السعيد ؟ فدع دموعك تجرى قبل أن يقال لك : ألم تكن قبل تدرى أن الحساب شديد ؟

أنت الذى ولدتكَ أُمك باكياً والناسُ حولكَ يضحكُونَ سرورا

فاعمدْ إلى عملٍ تكون إذا بكوْا فى يوْمِ موتِكَ ضاحكاً مسْرورا

كل القلوب قد لانت لكن قلبك قد قسا ، كأن قلبك أضحى بين القلوب من حديد .. ويحك هيىء زادك ، واحذر من نفاده يا فتى ، قبل أن تسافر بغتة فلا يشفع اللوم والتفنيد

تزوّدْ من حياتك للمعاد وقُمْ للهِ ، واجمعِ خيرَ زادِ

ولا تركنْ إلى الدنيا كثيراً فإن المالَ يجمعُ للنَّفادِ

أترضى أن تكون رفيق قوم   لهم زاد وأنت بغير زاد ؟ !

عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : « أتيت رسول الله ﷺ عاشر عشرة ، فقال رجل من الأنصار : يا رسول الله ، من أكيس الناس ؟ قال : أكثرهم للموت ذكراً ، وأحسنهم له استعداداً ، أولئك الأكياس ، ذهبوا بشرف الدنيا وكرم الآخرة » .

وقد سئل النبى ﷺ عن قوله تعالى : ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ﴾ . (الأنعام : ١٢٥)

فقال : « إن النور إذا حل فى القلب انفسح له وانشرح . قالوا : فهل لذلك من علامة يا رسول الله ؟ قال : نعم ، التجافى عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل مجيئه »

﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون * أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون ﴾ (هود : ١٥ ، ١٦)

﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً * ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً * كلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً * انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً ﴾ (الإسراء : ١٨ ـ ٢١)

عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه ، فقلت : يا رسول الله ، كراهية الموت ، فكلنا يكره الموت ؟ فقال : ليس ذاك ولكن المؤمن إذا بشر برحمة الله ورضوانه وجنته أحب لقاء الله فأحب الله لقاءه ، والكافر إذا بشر بعذاب الله وسخطه كره لقاء الله فكره الله لقاءه » ذكره مسلم .

ومن ثم فقد أخبر الصادق المعصوم قائلاً وقد عاد رسول الله ﷺ مريضاً

فوجد المرض قد برح به ، فسأله : « ألا تدع الله ؟ قال : بلى يا رسول الله قال له : فما تقول فى دعائك ؟ قال : أقول : اللهم إن كنت تعذبنى بشىء فى الآخرة فعجله لى فى الدنيا . فكأن رسول الله قد غضب ، فقال له : يا هذا أنت لا تطيقه ، ألا قلت ﴿ ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ﴾ (البقرة : ٢٠١)

وعاد مريضاً آخر فسأله : « كيف تجدك ؟ » قال : يا رسول الله ، أرجو رحمة ربى ، وأخاف عذابه ، فسر رسول الله بذلك ، وقال : « ما اجتمع الخوف والرجاء لعبد فى مثل هذا الموطن إلا غفر الله له » .

أما عن تمنى الموت ، فيقول مبعوث العناية الإلهية : (لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به ، فإن كان لا بد متمنياً فليقل : اللهم أحينى ما كانت الحياة خيراً لى ، وتوفنى ما كانت الوفاة خيراً لى) .

فاجتهد أيها العبد فى العمل الصالح ، وأشفق من كأس لا بد أنك ذائقه ، وارحل عن عيش لا بد أنت مفارقه ، يا ناسياً للرحيل وقد حث على نحيب الرحيل سائقه ، اعتبر بمن سبقك فإنما يعصى الذى سابقه .

ألا أيها القلب الكثير علائقه   ألم تر أن الدهر تجرى بوائقه ؟
رويدك لا تنس المقابر والبلى   وطعمة كأس الموت إنك ذائقه
ألا أيها الباكى على الموت بعده   رويدك ، لا تعجل فإنك لاحقه
إذا اعتصم المخلوق من فتن الهوى   بخالقه أنجاه منهن خالقه
أرى صاحب الدنيا مقيماً بجهله   على ثقة من صاحب لا يفارقه
فلا تتمن الموت يا صاح إنه   سيأتيك منه عن قريب طوارقه

وروى عن النبى ﷺ أنه قال : « ما الميت فى قبره إلا كالغريق المغوث ، ينتظر دعوة تلحقه من ابنه أو أخيه أو صديق له ، فإذا لحقته كانت أحب إليه من الدنيا وما فيها » .

وقال رسول الله ﷺ : « يقول القبر للميت حين يوضع فيه : ويحك يا ابن آدم ما غرّك بى ، ألم تعلم أنى بيت الفتنة ، وبيت الظلمة ، وبيت الوحدة ، وبيت الدود ؟ غرّك بى إذ كنت تمرّ بى ، فإن كان صالحاً أجاب عنه مجيب القبر فيقول : أرأيت إن كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ؟ فيقول القبر : إذاً أتحول عليه روضة خضراء » .

ولو أنّا إذا متنا تُركنا ... لكان الموتُ راحةَ كل حيّ
ولكنا إذا متنا بُعثنا ... ونُسأل بعده عن كل شيّ

روى كعب الأحبار رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « لا يمر أحد فى المقابر إلا وتناديه أهل القبور : يا غافل ، لو علمت ما نحن نعلم لذاب لحمك وجسمك كما يذوب الثلج على النار » .

وقال النبى ﷺ : « من أراد أن يزور قبراً فليزره ولا يقل إلا خيراً ، فإن الميت يتأذى مما يتأذى منه الحى » .

ويُروى عن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال : « ما من رجل يمر على قبر أخيه المؤمن كان يعرفه فسلم عليه إلا عرفه ورد عليه السلام » .

ومن هنا فقد كان الصالحون إذا ضاقت عليهم الدنيا ، واستحكمت حلقات الشدائد ، يذهبون إلى القبور ليزوروا الموتى .

دخل رجل على شيخ الزاهدين إبراهيم بن أدهم فى المقابر ، فوجده جالساً بين أجداث الموتى ، فألقى عليه السلام ثم قال له : مع من تجلس يا إبراهيم ؟ قال له : أجلس مع قوم إذا كنت بينهم لا يؤذوننى ، فإذا فارقتهم لا يغتابوننى . قال له : « ألا تدرى أن أسعار السلع قد ارتفعت وأنت هنا جالس ؟ قال له بلسان اليقين ومنطق الحق المبين : علينا أن نسعى كما أُمرنا ، وعليه أن يرزقنا كما وعدنا .

يا ابن آدم :

تُناجيك أمواتٌ وهنّ سكوتُ ... وسكانها تحت التراب خفوتُ

أيا جامع الدنيا لغير بلاغة ... لمن تجمع الدنيا وأنت تموتُ
وإنكمو إذ ما علينا تُسلّموا ... نرد عليكم واللسانُ صموتُ

وقال سليمان بن عبد الملك لأبى حازم : « يا أبا حازم ، ما لنا نكره الموت ؟ » قال : « لأنكم عمرتم الدنيا ، وخربتم الآخرة ، فأنتم تكرهون النقلة من العمران إلى الخراب ، قال : يا أبا حازم ، كيف القدوم على الله تعالى ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، أما المحسن فكالغائب يأتى أهله فرحاً ، وأما المسىء فكالعبد الآبق يأتى مولاه خائفاً محزوناً » .

وقال أبو سليمان الدارانى رحمة الله عليه : « قلت لأم هارون العابدة: أتحبين أن تموتى ؟ قالت : لا ، قلت : لِمَ ؟ قالت : والله لو عصيت مخلوقاً لاستحييت من لقائه ، فكيف الخالق جل جلاله ؟ »

وكيف يلذُّ العيشَ مَنْ هو عالمٌ ... بأن إله الخلق لا بُدَّ سائلُه ؟
فيأخذ منه ظلمه لعباده ... ويجزيه بالخير الذى هو فاعلُه
وكيف يلذُّ العيش مَنْ كان سائراً ... إلى لحد قبر ، فيه تبلى شمائله ؟
ويذهب رسمُ الوجه من بعد ضوئه ... قريباً ، ويبلى جسمُه ومفاصلُه

وقال أبو بكر الكتانى رحمة الله عليه : « كان رجل يحاسب نفسه على سيئاته وخطاياه ، فحسب يوماً سيئة فوجدها بعد التكليف ستين سنة ، فحسب أيامها فوجدها واحداً وعشرين ألف يوم ، وستمائة يوم (بالحساب الهجرى) فصرخ صرخة ، وخرّ مغشياً عليه ، فلما أفاق قال : يا ويلتاه وأنا آتى ربى بواحد وعشرين ألف ذنب وستمائة ذنب يقول : هذا لو كان فى كل يوم ذنب واحد ، فكيف بذنوب لا تحصى ؟ ثم قال : آه علىّ ، عمرت دنياى وخربت آخرتى ، وعصيت مولاى الوهاب ، ثم لا أشتهى النقلة من العمران إلى الخراب ، وكيف أقدم فى يوم الحساب على الكتاب والعذاب بلا عمل ولا ثواب ؟ منازل دنياى عمرتها ، وخربت دارى فى الآخرة ، فأصبحت أنكر دارى الخراب ، وأرغب فى دارى العامرة ، ثم شهق شهقة عظيمة ، ووقع على الأرض فحركوه

فإذا هو ميت رحمة الله عليه »

قال أبو عمر الضرير : حدثني سهل أخو حازم ، قال : رأيت مالك بن دينار في المنام بعد موته فقلت له : « يا أبا يحيى ، بماذا قدمت على الله عز وجل ؟ قال : قدمت عليه بذنوب كثيرة محاها حسن ظني بالله عز وجل » .

يظـنُّ النـاسُ بـى خيـراً وإنـى — أشرُّ النـاسِ ، إنْ لم تعْـفُ عنـى
ومـا لـى حيلـةٌ إلاَّ رجـائـى — وجودُك إنْ عفوتَ ، وحسنُ ظنى

وسُئل بعض الزهاد : كيف حالك ؟ فقال : « هو حال من يريد سفراً بلا زاد ، ويسكن قبراً موحشاً بلا مؤنس ، ويقدم على ملك قادر بغير حجة ؟ »

تعطَّفْ بفضلٍ منك يا ملك الورى — فأنت ملاذى ، سيدى ومُعينتى
لئن أبعدتنى عن حماك خطيئتى — فأنت رجائى ، شافعى وبغيتى
ولست أرى لى حجةً أبتغى بها — رضاك ، وإنَّ العفو منك يقينى

ويُروى عن عثمان بن عفان رضى الله عنه أنه وقف على قبر فبكى ، فقيل له : إنك تذكر الجنة والنار فلا تبكى ، وتبكى من هذا ، فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن القبر أول منزل من منازل الآخرة ، فإن ينج منه فما بعده أيسر منه ، وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه » .

سلامى على أهل القبور الدوارس — كأنهمو لم يجلسوا فى المجالسِ
ولم يشربوا من بارد الماء نهلةً — ولم يطعموا من كلِّ رطْبٍ ويابسِ
ولم يكُ منهم فى الحياة منافسٌ — طويلُ المنَى فيها ، كثيرُ الوساوسِ
ألاَ ليتَ شعرى ، أين قبرُ ذليلكم — وقبرُ العزيز ، الشامخ المتشاوس ؟
لقد سكنُوا فى موحش التُّربِ والثَّرى — فها هم بها ما بين راجٍ وآيسِ
ولو عقل المرءُ المنافس فى الذى — تركتم من الدنيا له ، لم ينافسِ

وكان يزيد لرقاشي يقول لنفسه : « ويحك يا يزيد ، من ذا يصلى عنك بعد

الموت ؟ ومن ذا يصوم عنك بعد الموت ؟ ومن ذا يتوضأ عنك بعد الموت ؟ ثم يقول : أيها الناس ، لِمَ لا تبكون على أنفسكم فى حياتكم ، فمن يكن الموت موعده ، والقبر بيته ، والتراب فراشه ، والدود أنيسه ، وهو مع ذلك ينتظر الفزع الأكبر ، كيف يكون حاله ؟ وكيف يكون مآله ؟ » ثم يبكى حتى يسقط مغشياً عليه .

ماذا يكون مآل المرء بعد ، هنا — عيش ، وآخره موتٌ سيعقبه ؟
والدهرُ يفجعه فيمن يُسرُّ به — والموتُ عن كُلِّ ما يهواه يحجبه
وحادثاتُ لياليه تُردعه — جهراً فيمزج بالتنغيص مشربه
يلهو ويحسب أياماً يعزُّ بها — وللمنيَّة قُرْبٌ ليس يحسبه

ويُروى أن امرأة شكت إلى عائشة رضى الله عنها قساوة فى قلبها ، فقالت لها : « أكثرى من ذكر الموت يرق قلبك » ففعلت ذلك ، فرقَّ قلبها ، فشكرت عائشة رضى الله عنها .

ومرض أبو الدرداء رضى الله عنه فقالوا له : أى شيء تشتهيه ؟ قال : الجنة ، قالوا : أندعو لك طبيباً ؟ قال : الطبيب أمرضنى ، فقال له رجل من أصحابه : يا أبا الدرداء ، أتشتهى أن أسامرك الليلة ؟ فقال له أبو الدرداء : أنت معافى وأنا مبتلى ، والعافية لا تدعك أن تسهر ، والبلاء لا يدعنى أن أنام ، ثم قال : أسأل الله الذى لا إله إلا هو أن يهب لأهل العافية الشكر ، ولأهل البلاء الصبر .

وإذا ابتليت بشدة فاصبرْ لها — صبْرَ الكرام ، فما يدوم مقامُها
فالله يبلى كى يُثيب فلا — تَضِقْ ذرْعاً بنازلةٍ جرتْ أحكامُها
ولرُبَّ يومٍ نازلتْك خطوبُه — ثم انجلتْ قبل الظلام ظلامُها
ولئن جزعتَ ، فليس ذاك بنافع — إن الأمورَ قضى بها علاَّمُها

وجاء فى بعض الخطب المروية : أيها الناس ، إن الآمال تُطوى ، والأعمال

تفنى ، والأبدان تحت التراب تبلى ، وإن الليل والنهار يتراكضان كركض البريد يقربان كل بعيد ، ويبليان كل جديد ، وفى كل ذلك ـ عباد الله ـ ما ألهى عن الشهوات ، وسلّى عن اللذات ، ورغّب فى الأعمال الباقيات الصالحات .

خليلى إن العمر وافى بلجة ، له دائماً نحو المنية إعجال ، وأرواحنا الأرزاق ، والموت ساحل ومن دونه من عاصف الخطب أهوال حقيقة ، ذى الدنيا محال وباطل ، ويتبعنا فيها حتوف وآجال ، وفى الباقيات الصالحات كفاية لمن قصرت منه على الدهر آمال ، وجاء فى الخبر : إن العبد الصالح ليعالج سكرات الموت وكرباته وإن مفاصله ليسلم بعضها على بعض ، تقول : السلام عليك .

ولقد كان سيد الخلق وحبيب الحق لما حضرته الوفاة كان يمسح وجهه بماء بارد ويقول : « سبحان الله إن للموت لسكرات ، ثم يدعو الله تعالى قائلاً : اللهم هون علىّ سكرات الموت » فكانت الزهراء رضى الله عنها تقول : « واكرباه على كربك يا أبتاه » فيرد عليها قائلاً : « يا فاطمة لا كرب على أبيك بعد اليوم » .

سيدى أبا القاسم يا رسول الله :

يا خيرَ من دُفنت بالقاع أعظمُه … فطابَ من طيبهن القاعُ والأكَمُ
نفسى تتوق لقبرٍ أنت ساكنهُ … فيه العفافُ ، وفيه الطُّهر والكرمُ

وقيل لحسان بن أبى سنان : « كيف تجدك ؟ قال : بخير إن نجوت من النار ، قيل له : ما تشتهى ؟ قال : ليلة طويلة أصليها كلها » .

خرجتُ من الدنيا وقامت قيامتى … غداةَ أقلَّ الحاملون جنازتى
وعجّل أهلى حفرَ قبرى ، وصيّروا … خروجى وتعجيلى إليه كرامتى
كأنهمو لم يعرفوا قطّ صحُبتى … غداةَ أتى يومى علىَّ وساعتى

وقيل : دخل المزنى على الشافعى رضى الله عنه فى مرضه الذى مات فيه ، فقال له : كيف أصبحت يا أبا عبد الله ؟ فقال : « أصبحت عن الدنيا راحلاً ، وللإخوان مفارقاً ، ولسوء عملى ملاقياً ، ولكأس المنية شارباً ، وعلى

ربى سبحانه وتعالى وارداً ، ولا أدرى روحى صائرة إلى الجنة فأهنيها أو إلى النار فأعزيها ؟ ثم أنشد :

ولما قسا قلبى ، وضاقت مذاهبى … جعلتُ الرّجا منى لعفوك سُلّما
تعاظمنى ذنبى ، فلما قرنته … بعفوك ربى كان عفوُك أعظما
فما زلتَ ذا عفوٍ عن الذنب … لم تزل تجودُ وتعفو منّةً وتكرُّما

هذا هو الشافعى الذى بات ليله عند تلميذه أحمد بن حنبل ، ولاحظت عليه بنت الإمام أحمد ثلاثة أمور :

قالت : يا أبتاه أهذا هو الشافعى الذى تحدثنى عنه ؟ قال لها : نعم ماذا تريدين منه ؟ قالت : لقد لاحظت عليه أموراً ثلاثة . قال : وما هى ؟

قالت : أولها : أنه تناول كثيراً من الطعام .

وثانيها : أنه لم يقم فيصلى من الليل تهجداً .

وثالثها : أنه صلى الفجر ولم يتوضأ .

فتوجه الإمام أحمد بهذه الأمور إلى الإمام الشافعى ، فقال الإمام : أما إننى أكلت كثيراً ، فذلك لأننى أعلم أن طعامك من حلال ، فأكلت لأشتفى ، فطعام الكريم دواء وطعام البخيل داء ، ومن أكل طعام أخيه ليسره ، فبإذن الله لن يضره . قال ﷺ : « لا تصاحب إلا مؤمناً ، ولا يأكل طعامك إلا تقى » .

وأما إننى لم أصلّ قيام الليل ، فذلك لأننى عندما وضعت رأسى فتح الله علىّ باثنتين وسبعين مسألة ، استنبطتها من كتاب الله وسنة رسوله ، عسى الله أن ينفع المسلمين بها .

وأما إننى لم أتوضأ لصلاة الفجر فذلك لأننى صليت الفجر بوضوء العشاء .

وهذا الإمام الجليل التقى الزاهد الطاهر النقى ، كان يقول :

أحبُّ الصالحين ولستُ منهم … لعلّى أنْ أنالَ بهم شفاعهْ

وأكره مَنْ تجارتُهم معاصي ... وإنْ كنّا سويّاً في البضاعهْ

فردّ عليه الإمام أحمد قائلاً :

تحبُّ الصالحين وأنتَ منهم ... ومنكم سوف يلقَوْنَ الشفاعهْ

وتكره مَنْ تجارتُهم معاصي ... وقاك الله من شرّ البضاعهْ

وهذا الشافعي الذي قال :

شكوتُ إلى وكيعٍ سوءَ حفظي ... فأرشدني إلى تركِ المعاصي

وأخبرني بأنَّ العلمَ نورٌ ... ونورُ الله لا يُهدى لعاصي

وهذا الشافعي ، الذي كان يقول فصْلاً ، ويحكم عدْلاً ، ينفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه ، وصدقت فيه نبوءة المصطفى ﷺ : « عالم قريش ، يملأ طباق الأرض علماً » هو صاحب القصيدة العصماء التي تقول أبياتها :

إذا المرءُ لا يلقاك إلا تكلُّفاً
فدَعْه ، ولا تُكثرْ عليه التأسُّفا
ففي الناس أبدالٌ ، وفي التَّرك راحةٌ
وفي القلب صبرٌ للحبيب ولو جفا
فما كلُّ مَنْ تهواه ، يهواك قلبه
ولا كلُّ مَنْ صافيْتَه ، لك قد صفا
إذا لم يكن صفوُ الوداد طبيعةً
فلا خيرَ في وُدٍّ يجيء تكلُّفا
ولا خيرَ في خِلٍّ يخون خليلَه
ويلقاه من بعد المودّة بالجفا
ويُنكر عيشاً قد تقادم عهده
ويُظهر سرّاً كان بالأمس في خفا

سلامٌ على الدنيا إذا لم يكن بها
صديقٌ صدوق ، يَصْدُقُ الوعدَ مُنْصفا

وهذا الشافعي هو الذي قال في مدح السفر :

ما في المقام لذي عقلٍ وذي أدبِ
من راحةٍ ، فَدَعِ الأوطانَ واغتربِ
سافرْ تجد عوضاً عمّن تفارقه
وانْصَبْ ، فإن لذيذَ العيش في النصَبِ
إنّي رأيتُ وقوفَ الماء يفسده
إنْ سال طاب ، وإنْ لم يجرِ لم يَطِبِ
والشمسُ لو وقفتْ في الفُلْك دائمةً
لملّها الناسُ من عجمٍ ومن عربِ
والأُسْد لولا فراق الغاب ما افترست
والسهم لولا فراق القوس لم يُصبِ
والتِّبْر كالتُّرب مُلْقًى في أماكنه
والعود في أرضه نوع من الحطبِ
فإنْ يعزب هذا عزَّ مطلبه
وإنْ يعزب ذاك عزَّ كالذهبِ

والشافعي هو الذي قال عند وفاته :

ولما قسَا قلبي ، وضاقتْ مذاهبي
جعلتُ الرجا مني لعفوك سُلَّما
تعاظمني ذنبي ، فلما قرنتُه
بعفوك ربي ، كان عفوك أعظما

فما زلتُ ذا عفوٍ عن الذنب لم تزل
تجود ، وتعفو منّةً وتكرُّما
فيا ليتَ شعرى ، هلْ أصيرُ لجنةٍ
فأهنأ وإمَّا للسعير فأندَما ؟

يُروى أن رجلاً جاء إلى مقبرة ، فصلى ركعتين ، ثم اضطجع فرأى فى منامه صاحب القبر فقال له : « يا هذا إنكم تعلمون وتعملون ونحن نعلم ولا نعمل ، والله لأن تكون ركعتان فى صحيفتى أحب إلىَّ من الدنيا وما فيها » .

ويُروى أن بعض المتعبدين أتى قبر صاحب له ، كان يألفه ، فأنشد يقول :

ما لى مررتُ على القبور مُسلِّماً
قبر الحبيب ، فلم يردَّ جوابى
أحبيبُ ، ما لك لا تجيب منادياً
أمللتَ بعدى خُلَّةَ الأصحابِ ؟
لو كان ينطق بالجواب لَقال لى
أكلَ الترابُ محاسنى وشبابى

قال : فهتف بى هاتفٌ من جانب القبر :

قال الحبيب : وكيف لى بجوابكم
وأنا رهينُ جنادل وترابِ ؟
أكل الترابُ محاسنى ، فنسيتكم
وحُجِبْتُ عن أهلى وعن أصحابى
فعليكم منى السلامُ تقطَّعتْ
عنى وعنكم خُلّةُ الأصحابِ

وتمزَّقت تلك الجلودُ صفائحاً
يا طالما لبستْ رفيع ثيابِ
وتفصَّلت تلك الأناملُ من يدى
ما كان أحسنها لخطِّ كتابى
وتساقطت تلك الثنايا لؤلؤاً
ما كان أحسنها لردِّ جوابِ
وتساقطتْ فوق الخدودِ نواظرى
يا طالما نظرتْ بها أحبابى

وقال ثابت البنانى رضى الله عنه :

« دخلت المقابر لأزور القبور ، وأعتبر بالموتى ، وأتفكر فى البعث والنشور ، وأعظ نفسى لعلها ترجع عن الغى والفجور ، فوجدت أهل القبور صامتين لا يتكلمون ، وفرادى لا يتزاورون ، فأيست من مقالهم ، واعتبرت بأحوالهم ، فلما أردت الخروج إذا بصوت يقول : يا ثابت ، لا يغرنك صمت أهليها فكم من نفس معذبة فيها » .

مرَّ داود الطائى بامرأة تبكى على قبر ، وهى تنشد هذه الأبيات :

عُدِمْتَ الحياةَ فلا نلتَها
إذا أنتَ فى القبرِ قد أوسدُوكا
وكيف ألذُّ بطعمِ الكرى
وها أنتَ فى القبرِ قدْ أفردُوكا

ثم قالت : يا أبتاه ، بأىِّ خدَّيْكَ بدأ الدود ؟ قال : فخرَّ داود مغشياً عليه .

* * *

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

هل يضير الله شيء عندما يبسط يده بالخير على عباده ؟ وهل تنقص خزائنه أن يفيض على الناس من البركات ؟ لا والذى نفسى بيده .

روى أبو هريرة عن النبى ﷺ أنه قال : « إن يمين الله ملأى لا يغيضها (أى لا ينقصها) نفقة ، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض ، فإنه لم ينقص ما فى يمينه ، وعرشه على الماء ، وبيده الأخرى الفيض أو القبض يرفع ويخفض » .

إن المؤمن الصادق هو الذى إذا سأل لا يسأل إلا الله ، وإذا استعان لا يستعين إلا بالله ، وإذا توكل فعلى الله ، لا يلجأ لغيره ، ولا يذل نفسه ما دام يؤمن بأن الرافع الخافض هو الله ، وأن الباسط القابض هو الله ، وأن المعز المذل هو الله ، وأن المعطى المانع هو الله ، وأن المحيى المميت هو الله ، أما الذى يلجأ لغيره فحسبه ما لجأ إليه .

قال ﷺ : « من فتح على نفسه باباً من السؤال ، فتح الله عليه سبعين باباً من الفقر » .

ما أعظم أن يعرق الجبين فى طلب الحلال ، روى أن النبى ﷺ كان جالساً ذات يوم مع أصحابه ، فنظروا إلى شاب ذى جلَد ، وقد بكّر يسعى ، فقالوا : ويح هذا لو كان شبابه وجلَده فى سبيل الله ، فقال ﷺ : « لا تقولوا هذا ، فإن كان يسعى على نفسه ليكفيها عن المسألة ويغنيها عن الناس فهو فى سبيل الله ، وإن كان يسعى على أبوين ضعيفين أو ذرية ضعاف ليغنيهم ويكفيهم فهو فى سبيل الله ، وإن كان يسعى تفاخراً وتكاثراً فهو فى سبيل الشيطان » .

ولأهمية الاستغفار نقول : إذا نزل القحط ، وامتنع المطر ، تقرب الزارع المسلم إلى الله بالصلاة والدعاء ، ويستحب للزراع إذا نزل بهم القحط وامتنع المطر أن يتقربوا إلى الله بالصلاة والدعاء اقتداء برسول الله ﷺ .

فقد حدث أن رجلاً دخل يوم الجمعة من باب كان تجاه المنبر ورسول الله ﷺ قائم يخطب ، فاستقبل رسول الله ﷺ قائماً فقال : يا رسول الله هلكت المواشى ، وانقطعت السبل ، فادع الله يغيثنا .

قال : فرفع رسول الله ﷺ يديه فقال : « اللهم اسقنا ، اللهم اسقنا » .

قال أنس : ولا والله ما نرى فى السماء من سحاب ولا قزعة (القطعة من السحاب الرقيق الأبيض) ولا شيئاً (أى من ريح أو كدرة مما يدل على المطر) وما بيننا وبين سلع (جبل بالمدينة) من بيت ولا دار ، قال : فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس (أى المجن الذى يتقى به للحرب) فلما توسطت السماء انتشرت ثم أمطرت قال : والله ما رأينا الشمس ستاً (أسبوع) ثم دخل من ذلك الباب فى الجمعة المقبلة ورسول الله ﷺ قائم يخطب فقال : يا رسول الله هلكت الأموال وانقطعت السبل فادع الله يمسكها قال : فرفع رسول الله ﷺ يديه ثم قال : اللهم حوالينا ولا علينا ، اللهم على الآكام (الهضبة أو الجبل الصغير) والجبال والآجام (الغابة) والظراب (الجبال المنبسطة على الأرض) والأودية ومنابت الشجر ، قال : فانقطعت وخرجنا نمشى فى الشمس .

وفى حديث آخر : قال : خرج النبى ﷺ يستسقى فتوجه إلى القبلة يدعو وحول رداءه ثم صلى ركعتين جهر فيهما بالقراءة .

أرأيت كيف كان الذكر والتضرع إلى الله واللجوء إليه ؟

انظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَءِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ * أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَءِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ * أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَءِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ * أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَءِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَءِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ لا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ (النمل : ٦٠ _ ٦٥)

سبحانك اللهمّ أنت الواحدُ ... كلُّ الوجود على وجودك شاهدُ
يا مَنْ له عنَتِ الوجوهُ بأَسْرِها ... رَهَباً ، وكلُّ الكائنات تُوحِّدُ
أنت الإلهُ الواحد الحقُّ الذى ... كلُّ القلوبِ له تُقِرُّ وتشهدُ

أرأيت كيف أمر الله السماء أن تمطر حتى صار ماؤها مغزاراً ومدراراً ومكثاراً . إنه سر الاستغفار والذكر .

﴿ ويا قومِ استغفِرُوا ربكم ثمّ توبُوا إليه يُرسِلِ السّماءَ عليكم مِدْراراً ويزِدْكم قوّةً إلى قوّتكم ولا تتولّوْا مُجْرِمين ﴾ (هود : ٥٢)

إن ذكر الله يضىء جنبات الحياة إذا أظلمت ، ويبدد ظلماتها إذا صارت قطعاً من الليل مظلماً ، ويهدى إلى سواء الصراط إذا ما ادلهمت الفتن واحتدمت الخطوب .

أسند عن الحارث ، عن على رضى الله عنه فيما أخرجه الترمذى قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ستكون فتن كقطع الليل المظلم » . قلت : يا رسول الله ، وما المخرج منها ؟ قال : « كتاب الله تبارك وتعالى فيه نبأ من قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم . هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبارٍ قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، هو حبل الله المتين ، ونوره المبين والذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تتشعب معه الآراء ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يملّه الأتقياء ، ولا يخلق على كثرة الردّ ، ولا تنقضى عجائبه ، وهو الذى لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا :

﴿ إنّا سمِعْنا قُرآناً عَجَباً ﴾ (الجن : ١)

من علم علمه سبق ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن عمل به أُجر ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم .

ويقول ابن عوف فيما رواه البخارى رضى الله عنه : « ثلاث أحبهن لنفسى وإخوانى :

هذه السُّنة أن يتعلموها ويسألوا عنها .

والقرآن أن يتفهموه ويسألوا عنه .

ويدعوا الناس إلا من خير » .

ويقول سيدنا على رضوان الله تعالى عليه فى كلام طويل له : « اعلموا أن هذا القرآن هو الناصح الذى لا يغشّ ، والهادى الذى لا يضل ، والمحدّث الذى لا يكذب ، وما جالس هذا القرآن أحد إلا قام عنه بزيادة أو نقصان : زيادة فى هدى ونقصان من عمى ، واعلموا : أنه ليس على أحد بعد القرآن من فاقة ، ولا لأحد قبل القرآن من غنى ، فاستشفوه من أدوائكم ، واستعينوا به على لأوائكم ، فإن فيه الشفاء من أكبر الداء .. » .

وعن مرة الهمدانى يقول : « قال عبد الله : إن أحسن الحديث كتاب الله ، وأحسن الهدى هدى محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وأن ما توعدون لآتٍ وما أنتم بمعجزين » .

* * *

الذكر المضاعف وجوامعه

عن جويرية بنت الحارث أم المؤمنين أن النبي ﷺ خرج من عندها ، ثم رجع بعد أن أضحى وهي جالسة ، فقال : « ما زلت على الحال التي فارقتك عليها ؟ قالت : نعم ، قال النبي ﷺ : قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات ، لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن : سبحان الله وبحمده ، عدد خلقه ، ورضاء نفسه ، وزنة عرشه ، ومداد كلماته » رواه مسلم وأبو داود .

ودخل رسول الله ﷺ على امرأة وبين يديها نوى (أو حصى) تسبح الله به ، فقال : أخبرك بما هو أيسر عليك من هذا ، أو أفضل ؟ فقال : سبحان الله عدد ما خلق بين ذلك ، وسبحان الله عدد ما هو خالق ، والله أكبر مثل ذلك ، والحمد لله مثل ذلك ، ولا إله إلا الله مثل ذلك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله مثل ذلك » رواه أصحاب السنن والحاكم .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ حدثهم أن عبداً من عباد الله قال : « يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك ولعظيم سلطانك ، فعضلت بالملكين ، فلم يدريا كيف يكتبانها ، ومعنى عضلت : أي اشتدت وعظمت ، فصعدا إلى السماء فقالا : يا ربنا إن عبدك قد قال مقالة لا ندري كيف نكتبها ؟ قال الله ، وهو أعلم بما قاله عبده : ما قال عبدي ؟ قالا : يا رب إنه قد قال : يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك ولعظيم سلطانك ، فقال الله لهما : اكتباها كما قال عبدي حتى يلقاني فأجزيه بها » رواه أحمد وابن ماجة .

* * *

أذكار الصباح والمساء

أذكار الصباح يبدأ وقتها من الفجر إلى طلوع الشمس ، وأذكار المساء ما بين العصر والغروب .

روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « من قال حين يصبح وحين يمسي : سبحان الله وبحمده مائة مرة ، لم يأت أحد يوم القيامة بأفضل مما جاء به ، إلا أحد قال مثل ما قال ، أو زاد عليه » .

وروى أيضاً عن ابن مسعود قال : « كان نبي الله ﷺ إذا أمسى قال : أمسينا وأمسى الملك لله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير . رب أسألك خير ما في هذه الليلة ، وخير ما بعدها ، وأعوذ بك من شر ما في هذه الليلة ، وشر ما بعدها . رب أعوذ بك من الكسل وسوء الكبر ، رب أعوذ بك من عذاب في النار وعذاب في القبر ، وإذا أصبح قال ذلك أيضاً : أصبحنا وأصبح الملك لله ، إلى آخره » .

وروى أبو داود ، عن عبد الله بن حبيب قال : « قال رسول الله ﷺ : « قل . قلت : يا رسول الله ، ما أقول ؟ قال : قل هو الله أحد والمعوذتين حين تمسي وحين تصبح ـ ثلاث مرات ـ تكفك من كل شيء » قال الترمذي : حديث حسن صحيح .

وروى أيضاً عن أبي هريرة أن النبي ﷺ كان يعلّم أصحابه يقول : « إذا أصبح أحدكم فليقل : اللهم بك أصبحنا ، وبك أمسينا ، وبك نحيا ، وبك

نموت ، وإليك النشور ، وإذا أمسى فليقل : اللهم بك أمسينا ، وبك أصبحنا ، وبك نحيـا ، وبـك نمـوت ، وإليك المصير » قـال الترمـذى : حـديث حسـن صحيح .

وفى صحيح البخارى عن شداد بن أوس عن النبى ﷺ قـال : « سيد الاستغفار : اللهم أنت ربى ، لا إله إلا أنت ، خلقتنى ، وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك علىّ وأبوء بذنبى ، فاغفر لى ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، من قالها حين يمسى فمات من ليلته دخل الجنة ، ومن قالها حين يصبح فمات من يومه دخل الجنة » .

وفى الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه : أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه قال لرسول الله ﷺ : مرنى بشىء أقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت ، قال : قل : « اللهم عالم الغيب والشهادة ، فاطر السموات والأرض ، ربّ كل شىء ومليكه ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أعوذ بك من شر نفسى ، وشر الشيطان وشركه ، وأن نقترف سوءاً على أنفسنا أو نجرّه إلى مسلم . قله إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعك » قال الترمذى : حديث حسن صحيح .

وفى الترمذى أيضاً عن عثمان بن عفان رضى الله عنه قال : قـال رسول الله ﷺ : « ما من عبد يقول فى صباح كل يوم ، ومساء كل ليلة : بسم الله الذى لا يضر مع اسمه شىء فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم ثلاث مرات فيضره شىء » أى لا يضره شئ .

وفيه أيضاً عن ثوبان وغيره أن رسول الله ﷺ قال : « من قال حين يمسى وإذا أصبح : رضيت بالله ربًا ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ نبيًا : كان حقًا على الله أن يرضيه » .

وفى الترمذى أيضاً عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « من قال حين يصبح أو يمسى : اللهم إنى أصبحت أشهدك وأشهد حملة عرشك وملائكتك وأنبياءك وجميع خلقك أنك أنت الله ، لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك ،

وأن محمداً عبدك ورسولك ﷺ أعتق الله ربعه من النار ، فمَنْ قالها مرتين أعتق الله نصفه من النار ، ومن قالها ثلاثاً أعتق الله ثلاثة أرباعه من النار ، ومن قالها أربعاً أعتقه الله من النار » .

وفى سنن أبى داود عن عبد الله بن غنام أن رسول الله ﷺ قال : « من قال حين يصبح : اللهم ما أصبح بى من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك ، لك الحمد ولك الشكر فقد أدى شكر يومه ، ومن قال مثل ذلك حين يمسى فقد أدى شكر ليلته » .

وفى السنن وصحيح الحاكم عن عبد الله بن عمر قال : لم يكن النبى ﷺ يدع هؤلاء الكلمات حين يمسى وحين يصبح : « اللهم إنى أسألك العفو والعافية فى الدين والدنيا والآخرة . اللهم إنى أسألك العفو والعافية فى دينى ودنياى وأهلى ومالى ، اللهم استر عوراتى ، وآمن روعاتى ، اللهم احفظنى من بين يدى ومن خلفى ، وعن يمينى ، وعن شمالى ، ومن فوقى ، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتى » قال وكيع : يعنى الخسف .

وعن عبد الرحمن بن أبى بكرة أنه قال لأبيه : يا أبت ، إنى أسمعك تدعو كل غداة : « اللهم عافنى فى بدنى ، اللهم عافنى فى سمعى ، اللهم عافنى فى بصرى ، لا إله إلا أنت . تعيدها ثلاثاً حين تصبح وثلاثاً حين تمسى ؟ فقال : وإنى سمعت رسول الله ﷺ يدعو بهن ، فأنا أحب أن أستنّ بسنته » رواه أبو داود .

وروى ابن السنى عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « من قال إذا أصبح : اللهم إنى أصبحت منك فى نعمة وعافية وستر ، فأتمّ نعمتك علىّ وعافيتك وسترك فى الدنيا والآخرة ، ثلاث مرات ، إذا أصبح وإذا أمسى كان حقًا على الله أن يتم عليه » .

وروى عن أنس أنه ﷺ قال : « أيعجز أحدكم أن يكون كأبى ضمضم ؟ قالوا : ومن أبو ضمضم يا رسول الله ؟ قال : كان إذا أصبح قال : اللهم وهبت نفسى وعرضى لك ، فلا يشتم من شتمه ، ولا يظلم من ظلمه ، ولا يضرب من ضربه » .

وروى عن أبى الدرداء رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « من قال فى كل يوم حين يصبح وحين يمسى : حسبى الله لا إله إلا هو ، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ، سبع مرات ، كفاه الله تعالى ما أهمه من أمر الدنيا والآخرة » .

وروى عن طلق بن حبيب قال : جاء رجل إلى أبى الدرداء ، فقال : يا أبا الدرداء ، قد احترق بيتك ، فقال : ما احترق ، لم يكن الله عز وجل ليفعل ذلك بكلمات سمعتهن من رسول الله ﷺ ، من قالها أول نهاره لم تصبه مصيبة حتى يمسى ، ومن قالها آخر نهاره لم تصبه مصيبة حتى يصبح :

« اللهم أنت ربى ، لا إله إلا أنت ، عليك توكلت ، وأنت رب العرش العظيم ، ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . أعلم أن الله على كل شىء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شىء علماً . اللهم إنى أعوذ بك من شر نفسى ، ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها ، إن ربى على صراط مستقيم » وفى بعض الروايات أنه قال : انهضوا بنا ، فقام وقاموا معه ، فانتهوا إلى داره وقد احترق ما حولها ولم يصبها شىء !!

* * *

أذكار النوم

روى البخارى عن حذيفة وأبى ذر رضى الله عنهما قالا : كان النبى ﷺ إذا أوى إلى فراشه قال : « باسمك اللهم أحيا وأموت » وإذا استيقظ قال : الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور » .

وكان من هديه ﷺ أن يضع يده اليمنى تحت خده ويقول : « اللهم قنى عذابك يوم تبعث عبادك – ثلاثاً – ويقول : اللهم رب السماوات ورب الأرض ورب العرش العظيم ، ربنا ورب كل شىء ، فالق الحب والنوى ، منزل التوراة والإنجيل والقرآن ، أعوذ بك من شر كل ذى شر أنت آخذ بناصيته ، أنت الأول فليس قبلك شىء ، وأنت الآخر فليس بعدك شىء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شىء ، وأنت الباطن فليس دونك شىء . إقض عنا الدين وأغننا من الفقر » .

وكان يقول : « الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا ، فكم ممن لا كافى ولا مؤوى » .

وكان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما فقرأ فيهما : « قل هو الله أحد » و « قل أعوذ برب الفلق » و « قل أعوذ برب الناس » ، ثم مسح بهما ما استطاع من جسده ، يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده الشريف ، يفعل ذلك ثلاث مرات » .

وأرشد ﷺ أن يقول المضطجع : « باسمك ربى وضعت جنبى وبك أرفعه ، إن أمسكت نفسى فارحمها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين » .

وقال ﷺ لفاطمة : « سبِّحي الله ثلاثاً وثلاثين ، واحمديه ثلاثاً وثلاثين ، وكبِّريه أربعاً وثلاثين » .

و أوصى ﷺ بقراءة الدعاء المتقدم ذكره : « اللهم فاطر السماوات والأرض » ... الخ ، كما أوصى بقراءة آية الكرسي ، وأخبر بأن من يقرأها لا يزال عليه من الله حافظ .

وقال للبراء : « إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ، ثم اضطجع على شقك الأيمن ، وقل : اللهم أسلمت نفسي إليك ، ووجهت وجهي إليك ، وفوضت أمري إليك ، وألجأت ظهري إليك ، رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك ، آمنت بكتابك الذي أنزلت ، ونبيك الذي أرسلت ، ثم قال : فإن مِتَّ مِتَّ على الفطرة ، واجعلهن آخر ما تقول » .

دعاء الاستيقاظ من النوم

عباده ، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون ، فإنها لن تضره » قال وكان ابن عمر يعلمها من بلغ من ولده ، ومن لم يبلغ منهم كتبها في صك وعلقها في عنقه . إسناده حسن .

وعن خالد بن الوليد رضي الله عنه أنه أصابه أرق فقال رسول الله ﷺ : « ألا أعلمك كلمات إذا قلتهن نمت ؟ قل : اللهم ربَّ السماوات السبع وما أظلَّتْ ورب الأرضين وما أقلَّتْ ، ورب الشياطين وما أضلت ، كن لي جاراً من شر خلقك كلهم جميعاً ، أن يفرط عليَّ أحد منهم ، أو أن يبغي عليَّ ، عزَّ جارك ، وجل ثناؤك ، ولا إله غيرك ، ولا إله إلا أنت » .

المؤمنون الصادقون

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ إنَّما المؤمنُون الذين إذا ذُكرَ اللهُ وَجِلَتْ قلوبُهم وإذا تُليَتْ عليهم آياتُه زَادتْهُم إيماناً وعلى ربّهم يَتوكّلُونَ * الّذين يُقيمُونَ الصلاةَ ومِمّا رَزَقْناهُم يُنفِقُونَ * أولئك هُمُ المؤمنون حقّاً لهُم درجاتٌ عند ربِّهم ومَغفرةٌ ، ورزقٌ كريم ﴾ (الأنفال : ٢ ـ ٤)

هذه صفات كريمة ، وخصال نبيلة ، وسجايا حميدة ، ومشاعر عالية رفيعة ، بدأها الله تبارك اسمه بقوله : « إنما المؤمنون » ثم حكم لهم فى نهاية المطاف بأحكام ، أولها : « أولئك هم المؤمنون حقاً » ، وثانيها : « لهم درجات عند ربهم » ، وثالثها : « مغفرة » ، ورابعها « ورزق كريم » .

ما أجمل هذه الصفات التى من أجلها استحق هؤلاء هذه الأحكام ! فما أصدق الله إذا قال ، وما أعدله إذا حكم !

إنه جل شأنه وصف هؤلاء بأنهم إذا ذُكر الله وَجِلَتْ قلوبهم من عظمته وهيبته ، ونزلت فيها السكينة والطمأنينة لعفوه ورحمته وبره وكرمه ، قال جلّ شأنه : ﴿ الذين آمنوا وتطمئنُّ قلوبُهم بذكر الله ألا بذكرِ الله تطمئنُّ القلوبُ ﴾ (الرعد : ٢٨)

* * *

ووصفهم ثانياً بقوله عز من قائل : ﴿ وإذا تُليَتْ عليهم آياتُه زادتْهم إيماناً ﴾ ذلك : لأن الإيمان يزيد بالطاعة .

وما من شك فى أن شجرة الإيمان طيبة الثمر ، كريمة العطاء ، أصلها ثابت

وفرعها فى السماء ، كلما تعهدتها بالأعمال الصالحة ازدادت نماء وكرماً ، إذ إنها بالأعمال الطيبة الصالحة : ﴿ تُؤتى أُكُلَها كلَّ حينٍ بإذنِ ربِّها ﴾ .

* * *

ووصفهم مولانا تبارك وتعالى ثالثاً بقوله : ﴿ وعلى ربّهم يتوكّلون ﴾ أى لا يسلمون أمورهم ويفوضون شئونهم ـ بعد الأخذ فى الأسباب ـ إلا على الواحد القهار جل شأنه ، فهم إذا سألوا لا يسألون إلا الله ، وإذا استعانوا فلا يستعينون إلا بالله ، وإذا توكلوا فلا يتوكلون إلا على الله .

ورحم الله القائل :

لاَ تخضعنّ لمخلوقٍ على طمعٍ ... فإن ذلك نقصٌ منك فى الدّينِ
لن يقدرَ العبدُ أن يعطيك خردلةً ... إلا بإذن الذى سوّاك من طينِ
فلاَ تُصاحبْ غنياً تستعزُّ به ... وكُنْ عفيفاً ، وعظّم حرمةَ الدينِ
واسترزق اللهَ مما فى خزائنه ... فإن رزقكَ بين الكاف والنونِ
واستغنِ بالله عن دنيا الملوك كما ... استغنى الملوكُ بدنياهم عن الدّينِ

* * *

ووصفهم مولانا رابعاً بقوله (الذين يقيمون الصلاة) أى يؤدونها أداء مستقيماً لا عوج فيه ولا نقص ، وإنما كمال وخشوع وجلال .

قالت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها وهى تصف صلاة رسول الله ﷺ : « كان يحدثنا ونحدثه ، ويكلمنا ونكلمه ، فإذا حضرت الصلاة كأنه لا يعرفنا ولا نعرفه »

وقد سُئل « حاتم الأصم » رضى الله عنه : كيف أنت إذا دخلتَ الصلاة ؟ قال : إذا أردت الدخول فى الصلاة توضأت فأحسنت الوضوء ، ثم إذا توجهت للوقوف بين يدى الله جعلت كأن الكعبة أمامى ، والموت ورائى ، والجنة عن

يمينى ، والنار عن شمالى ، والصراط تحت قدمى ، والله مطّلع علىّ ، ثم أتم ركوعها وسجودها ، فإذا سلّمت لا أدرى أقبلها الله ، أم ردّها علىّ ؟ !

يرحم الله هؤلاء الأبرار الأطهار ، الأتقياء الأنقياء الأصفياء الأخيار . إنهم عرفوا الله فأحبهم الله .. فرضى الله عنهم ورضوا عنه .

كانوا فى حالة السلم كما وصفهم مولانا جل شأنه فى قوله : ﴿ فى بيوتٍ أذنَ اللهُ أن تُرفعَ ويُذكرَ فيها اسمُهُ يُسبّحُ له فيها بالغدوّ والآصالِ * رجالٌ لا تُلهيهم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذكر الله وإقام الصّلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلّبُ فيه القلوبُ والأبصارُ * ليجزيَهُم اللهُ أحسنَ ما عملوا ويزيدَهم من فضله واللهُ يرزق مَنْ يشاءُ بغيرِ حسابٍ ﴾ (النور : ٣٦ ـ ٣٨)

وكانوا فى حالة الحرب كما قال الله فى شأنهم : ﴿ من المؤمنين رجالٌ صدقُوا ما عاهدُوا اللهَ عليه فمنهم مَنْ قضى نحبَه ومنهم مَنْ ينتظرُ وما بدّلوا تبديلاً * ليَجزيَ اللهُ الصّادقين بصدقِهم ﴾ (الأحزاب : ٢٣ ، ٢٤)

* * *

ووصف الله تعالى المؤمنين الصادقين خامساً بقوله : ﴿ وممّا رزقناهم يُنفقُونَ ﴾ أى أنهم عرفوا أن نعم الله التى يسديها ويسوقها إلى عباده لا بد لها من تزكية تتطهر بها .

فالمال : رزق ، وفيه نفقة .

والعلم : رزق ، وفيه نفقة .

والصحة : رزق ، وفيها نفقة .

والذكاء : رزق ، وفيه نفقة .

فنفقة العلم : أن ينفع به الناس ، ويخرجهم بالهداية من الظلمات إلى النور .

ونفقة المال : أن يعين به الفقراء والمساكين ، ويغيث به ذا الحاجة الملهوف ويأخذ بيد الضعيف ، ويواسى به البؤساء .

ونفقة الصحة : أن يستعملها فى الخير ، فيشارك الضعفاء ، ويزيل النكبات عن المنكوبين .

ونفقة الذكاء : أن يستغله فى الخير والبناء ، لا فى الهدم والتخريب وظلم العباد .

هذه نعم أنعم الله بها على عباده ، وأمرهم أن يؤدوا ما وجب فيها ، شكراً لله المنعم المتفضل ، الذى يقول فى الحديث القدسى الجليل : « عبدى ، أنفق أُنفق عليك » .

هذه خمس صفات ، استحقوا بمقتضاها أن يحكم لهم بأربعة أحكام :

١ – أولئك هم المؤمنون حقاً .

٢ – لهم درجات عند ربهم .

٣ – ومغفرة .

٤ – ورزق كريم .

فرضى الله عنهم ، ورضوا عنه ، وجعلنا منهم .

* * *

[illegible]

[illegible]

وتتأكد الصلاة على رسول الله ﷺ إذا ذُكر اسمه ، لما رواه الترمذى عن علي بإسناد حسن : « البخيل من ذُكِرْتُ عنده فلم يصلِّ عليَّ » .

ويجب هنا أن نذكر ما جاء في كتب التفسير عن معنى قوله تعالى : ﴿ إنَّ اللهَ وملائكتَه يُصلُّون على النبيِّ يا أيُّها الذين آمنوا صلُّوا عليه وسلِّموا تسليماً ﴾ (الأحزاب : ٥٦)

قال البخارى : قال أبو العالية : صلاة الله تعالى ثناؤه عليه عند الملائكة وصلاة الملائكة الدعاء . وقال ابن عباس : يصلون أى يباركون .

ورُوى عن سفيان الثورى وغير واحد من أهل العلم قالوا : صلاة الرب الرحمة ، وصلاة الملائكة الاستغفار .

ورُوى عن عطاء بن أبي رباح ﴿ إنَّ اللهَ وملائكتَه يُصلُّون على النبيِّ ﴾ .

قال : صلاته تبارك وتعالى سبوح قدوس سبقت رحمتي غضبي .

والمقصود من هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه فى الملأ الأعلى بأنه يثني عليه عند الملائكة المقربين ، وأن الملائكة تصلي عليه ، ثم أمر تعالى أهل العالم السفلى بالصلاة والتسليم عليه ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوى والسفلى جميعاً .

روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس أن بني إسرائيل قالوا لموسى عليه الصلاة والسلام : هل يصلى ربك ؟ فناداه ربه عز وجل : يا موسى سألوك .. هل يصلى ربك ؟ فقل : نعم أنا أصلي وملائكتي على أنبيائي ورسلي ، فأنزل الله عز وجل على نبيه ﷺ : ﴿ إنَّ اللهَ وملائكتَه يُصلُّونَ على النبيِّ يا أيُّها الذين آمنوا صلُّوا عليه وسلِّموا تسليماً ﴾ .

وقد أخبر سبحانه وتعالى بأنه يصلى علي عباده المؤمنين فى قوله : ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا اذكُروا اللهَ ذكرًا كثيراً * وسبِّحوه بُكرةً وأصيلاً * هو الذى يُصلِّي عليكم وملائكتُه ليُخرجَكم من الظلمات إلى النورِ ﴾ (الأحزاب : ٤١ ـ ٤٣)

وقال جل شأنه : ﴿ وبشِّر الصابرينَ * الذين إذا أصابتهم مُصيبةٌ قالوا إنَّا لله

وإنَّا إليه راجعُونَ * أولئك عليهم صلواتٌ من ربِّهم ورحمةٌ وأولئكَ هُمُ المُهتدُونَ ﴾ (البقرة : ١٥٥ ـ ١٥٧)

وفى الحديث الشريف : « إن الله وملائكته يصلون على ميامن الصفوف »

وقال عليه الصلاة والسلام : « إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة فى جحرها والحيتان فى البحر يصلون على معلم الناس الخير »

وللطبرانى فى الأوسط والكبير عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ « من قرأ السورة التى يذكر فيها آل عمران يوم الجمعة صلى عليه الله وملائكته حتى تغيب الشمس » .

كيفية الصلاة على رسول الله ﷺ

وردت أحاديث عن رسول الله ﷺ تبين لنا كيفية الصلاة عليه كما تفيد الأمر بالصلاة عليه .

قال البخارى فى تفسير قوله تعالى : ﴿ إنَّ اللهَ وملائكتَه يُصلُّون على النبيِّ يا أيُّها الذين آمنوا صلُّوا عليه وسلِّموا تسليماً ﴾ .

قال : حدثنا سعيد بن يحيى بن سعيد أخبرنا أبى عن مسعر عن الحكم عن ابن أبي ليلى عن كعب بن عجرة قال : قيل : يا رسول الله ، أما السلام عليك فقد عرفناه ، فكيف الصلاة ؟ قال : قولوا : اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد ، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد » .

ومعنى قولهم لرسول الله ﷺ : قد علمنا السلام عليك فالمقصود ما جاء فى التشهد وهو : السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته .

وفى حديث آخر قالوا : يا رسول الله ، كيف نصلى عليك ؟ قال : قولوا : « اللهم صلِّ على محمد وأزواجه وذريته كما صليت على آل إبراهيم ، وبارك

على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد »

وعن أبي مسعود البدري رضى الله عنه أنهم قالوا : يا رسول الله ، أما السلام فقد عرفناه ، فكيف نصلى عليك إذا نحن صلينا فى صلاتنا ؟ فقال : قولوا : « اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد » وذكره . ورواه الشافعي رحمه الله فى مسنده عن أبي هريرة بمثله ، ومن هنا ذهب الشافعي رحمه الله إلى أنه يجب على المصلّى أن يصلى على رسول الله ﷺ فى التشهد الأخير ، فإن تركه لم تصح صلاته .

وأخرج الإمام أحمد : عن بريدة قال : قلنا : يا رسول الله ، قد علمنا كيف نسلم عليك فكيف نصلى عليك ؟ قال : « قولوا : اللهم اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على محمد وعلى آل محمد كما جعلتها على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد » .

وروى ابن ماجة بسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : إذا صليتم على رسول الله ﷺ فأحسنوا الصلاة عليه ، فإنكم لا تدرون لعل ذلك يعرض عليه ، قال : فقالوا له : علّمنا ، قال : قولوا : اللهم اجعل صلواتك ورحمتك وبركتك على سيد المرسلين وإمام المتقين وخاتم النبيين محمد عبدك ورسولك إمام الخير وقائد الخير ورسول الرحمة ، اللهم ابعثه مقاماً محموداً يغبطه به الأولون والآخرون ، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد .

وفى رواية قالوا : يا رسول الله ، علمنا السلام عليك ، فكيف الصلاة عليك ؟ قال : « اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم إنك حميد مجيد ، وارحم محمداً وآل محمد كما رحمت آل إبراهيم إنك حميد مجيد ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد » .

فيستدل بهذا الحديث من ذهب إلى جواز الترحم على النبى ﷺ كما هو قول جمهور العلماء ، ويقويه حديث الأعرابى الذى قال : اللهم ارحمنى

ومحمداً ولا ترحم معنا أحداً ، فقال رسول الله ﷺ : « لقد حجرت واسعاً » .

بركات الصلاة على رسول الله ﷺ

ومن بركات الصلاة على رسول الله ﷺ أن الملائكة تصلى على مَنْ صلى عليه ما دام يصلى عليه .

قال ﷺ : « من صلى عليَّ صلاة لم تزل الملائكة تصلى عليه ما صلى عليَّ فليقلّ عبد من ذلك أو ليكثر » .

وروى أبو عيسى الترمذى بسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أولى الناس بى يوم القيامة أكثرهم علىّ صلاة» .

وعن زيد بن طلحة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أتانى آت من ربى فقال لى : ما من عبد يصلى عليك صلاة إلا صلى الله عليه بها عشراً . فقام إليه رجل فقال : يا رسول الله ، ألا أجعل نصف دعائى لك ؟ قال : إن شئت ، قال : ألا أجعل ثلثى دعائى لك ؟ قال : إن شئت ، قال : ألا أجعل دعائى كله ؟ قال : إذن يكفيك الله هم الدنيا وهم الآخرة » .

وروى أحمد رضى الله عنه بسنده عن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه قال : خرج رسول الله ﷺ فاتبعته حتى دخل نخلاً فسجد فأطال السجود حتى خفت أو خشيت أن يكون قد توفاه الله أو قبضه ، قال : فجئت أنظر ، فرفع رأسه فقال « ما لك يا عبد الرحمن ؟ قال : فذكرت له ذلك فقال : إن جبريل عليه السلام قال لى ألا أبشرك ، إن الله عز وجل يقول : من صلّى عليك صليت عليه ، ومن سلّم عليك سلّمت عليه » .

وروى الإمام أحمد فى مسنده عن عبد الله بن أبى طلحة عن أبيه أن رسول الله ﷺ جاء ذات يوم والسرور يرى فى وجهه ، فقالوا : يا رسول الله ، إنا لنرى السرور فى وجهك ، فقال « إنه أتانى الملك فقال : يا محمد أما يرضيك أن ربك عز وجل يقول : إنه لا يصلى عليك أحد من أمتك إلا صليت عليه عشراً ، ولا يسلم عليك أحد من أمتك إلا سلّمت عليه عشراً ؟ قلت : بلى »

وقال الإمام أحمد رواية عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : « صلوا علىّ فإنها زكاة لكم ، وسلوا الله لى الوسيلة فإنها درجة فى أعلى الجنة ولا ينالها إلا رجل وأرجو أن أكون أنا هو » .

ومعنى طلب الوسيلة لرسول الله ﷺ أن يقول العبد : اللهم ربَّ هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آتِ سيدنا محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذى وعدته .

وروى الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنه قال : « من صلى على رسول الله ﷺ صلاة صلى الله عليه وملائكته بها سبعين صلاة ، فليُقلّ عبد من ذلك أو ليُكثر » .

وعن عبد الله بن عمرو قال : خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً كالمودع فقال : « أنا محمد النبى الأمى - قاله ثلاث مرات - ولا نبى بعدى ، أوتيت فواتح الكلام وخواتمه وجوامعه ، وعلمت كم خزنة النار وحملة العرش وتجوز لى ، عوفيت وعوفيت أمتى ، فاسمعوا وأطيعوا ما دمت فيكم ، فإذا ذهب بى فعليكم بكتاب الله أحِلّوا حلاله وحرّموا حرامه » .

وروى أبو داود الطيالسى بسنده عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من ذكرت عنده فليصل علىّ ، ومن صلى علىّ مرة واحدة صلى الله عليه عشراً » .

من أبخل الناس ؟

يبين الرسول ﷺ فى أحاديثه أن البخيل ، بل إن أبخل الناس ، من إذا سمع اسم الرسول ﷺ يذكر فلا يصلّى عليه .

وقال ﷺ : « البخيل من ذُكرت عنده ثم لم يصلّ علىّ » .

وقال ﷺ : « بحسب امرىء من البخل أن أُذكر عنده فلا يصلى علىّ » .

وروى الترمذى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصلّ علىّ ، ورغم أنف رجل

دخل رمضان عليه ثم انسلخ قبل أن يُغفر له ، ورغم أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبر فلم يدخلاه الجنة » .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما جلس قوماً مجلساً لم يذكروا الله فيه ولم يصلوا على نبيهم إلا كان عليهم ترة يوم القيامة ، فإن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم » .

وقد روى أبو هريرة عن النبى ﷺ أنه قال : « ما من قوم يقعدون ثم يقومون ولا يصلون علىّ إلا كان عليهم يوم القيامة حسرة وإن دخلوا الجنة لما يرون من الثواب » .

وروى الإمام أحمد رضى الله عنه بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إذا سمعتم مؤذناً فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا علىّ ، فإنه من صلى علىّ صلاة صلى الله عليه بها عشراً ، ثم سلوا الله لى الوسيلة فإنها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل لى الوسيلة حلّت عليه الشفاعة » .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « صلوا علىّ فإن صلاتكم علىّ زكاة لكم ، وسلوا الله لى الوسيلة . والوسيلة أعلى درجة فى الجنة » .

وروى الإمام أحمد بسنده عن رويفع بن ثابت الأنصارى أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من صلى على محمد وقال : اللهم أنزله المقعد المقرّب عندك يوم القيامة وجبت له شفاعتى » .

وكان ابن عباس رضى الله عنهما يقول : اللهم تقبل شفاعة محمد الكبرى ، وارفع درجته العليا ، وأعطه سؤله فى الآخرة والأولى كما آتيت إبراهيم وموسى عليهما السلام .

وروى الإمام أحمد بسنده عن فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ قالت : كان رسول الله ﷺ إذا دخل المسجد صلى على محمد وسلم ثم قال : « اللهم اغفر لى ذنوبى ، وافتح لى أبواب رحمتك » وإذا خرج صلى على

محمد وسلم ثم قال : « اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب فضلك » .

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : « إذا مررتم بالمساجد فصلُّوا على النبي ﷺ » .

وروى الترمذي بسنده عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : « الدعاء موقوف بين السماء والأرض لا يصعد منه شيء حتى تصلي على نبيك » .

وروى الإمام أحمد وأهل السنن وابن خزيمة وابن حبان والحاكم من حديث أبي الجوزاء عن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال : علّمني رسول الله ﷺ كلمات أقولهن في الوتر : « اللهم اهدني فيمن هديت ، وعافني فيمن عافيت ، وتولّني فيمن توليت ، وبارك لي فيما أعطيت ، وقني شر ما قضيت ، فإنك تقضي ولا يقضى عليك ، إنه لا يذل من واليت ، ولا يعز من عاديت ، تباركت ربنا وتعاليت » .

وزاد النسائي في سننه بعد هذا « وصلى الله على محمد » .

الصلاة على المختار يوم الجمعة وليلتها

ليس هناك أدنى شك في أن خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة ، وذلك لأنه عيد المسلمين ، والجمعة حج المساكين ، والسموات والأرض تحتفي بهذا اليوم العظيم .

ومن أفضال هذا اليوم أن الصلاة على رسول الله ﷺ فيه لها أعلى المكانات وأعظم الدرجات .

اسمع معي ما رواه الإمام أحمد بسنده عن أوس بن أوس الثقفي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من أفضل أيامكم يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه قبض ، وفيه النفخة ، وفيه الصعقة ، فأكثروا عليّ من الصلاة فيه ، فإن صلاتكم معروضة عليّ . قالوا : يا رسول الله ، وكيف تعرض عليك صلاتنا وقد أرمت ؟ ـ يعني قد بليت ـ قال : إن الله حرّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء » .

وروى عبد الله بن ماجة بسنده عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أكثروا الصلاة عليّ يوم الجمعة فإنه مشهود تشهده الملائكة ، وإن أحداً لن يصلي عليّ فيه إلا عُرضت عليّ صلاته حتى يفرغ منها . قال قلت : وبعد الموت ؟ قال : إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء » .

وقال الشافعي : أخبرنا إبراهيم بن محمد أخبرنا صفوان بن سليم أن النبي ﷺ قال : « إذا كان يوم الجمعة وليلة الجمعة فأكثروا الصلاة عليّ » .

وهكذا يجب على لخطيب أن يصلي على النبي ﷺ يوم الجمعة على المنبر في الخطبتين ، ولا تصح الخطبتان إلا بذلك ، فإنها عبادة وذكر الله شرط فيها ، فوجب ذكر الرسول ﷺ فيها ، كالأذان والصلاة ، وهذا مذهب الشافعي وأحمد رضي الله عنهما . ومن ذلك يستحب الصلاة والسلام عليه عند زيارة قبره ﷺ . روى أبو داود بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحد يسلم عليّ إلا ردّ الله عليّ روحي حتى أرد عليه السلام » .

وعن أبي هريرة أيضاً قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تجعلوا بيوتكم قبوراً ، ولا تجعلوا قبري عيداً ، وصلوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني حيثما كنتم » .

صلى عليك الله يا علم الهدى ، ما هبّت النسائم ، وما ناحت على الأيك الحمائم .

سيدي أبا القاسم يا رسول الله :

صلّت عليك ملائكُ الرحمن ... وسَرى الضياءُ بسائر الأكوان

لما طلعتَ على الوجود مزوَّداً ... بحمَى الإله ورايةِ القرآن

تباركت ربنا وتعاليت ، جلّت حكمتك وعمّت رحمتك وعظمت رأفتك ، أرسلته هادياً للناس ، ووصفته في التوراة بقولك « يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين ، أنت عبدي ورسولي ، سمّيتك المتوكل ،

ليس بفظٍّ ولا غليظ ولا سخّاب فى الأسواق ، ولا يدفع بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله ، فيفتح بها أعيناً عُمْياً وآذاناً صمـاً وقلوباً غُلْفاً » .

صلوات ربى وسلامه عليك يا مبعوث العناية الإلهية ، يا من أرسلك الله رحمة للعالمين ، يا خاتم الأنبياء والمرسلين ، يا قائد الغرّ المحجّلين ، يا إمام الموحدين ، يا صاحب المقام المحمود ، والموقف المشهود ، واللواء المعقود ، والحوض المورود .

يا من قال الله فى شأنك ﴿ وما أرسلناك إلاّ كافّةً للنّاسِ بَشيراً ونَذيراً ﴾
(سبأ : ٢٨)

ويا مَنْ قال الله فى شأنك : ﴿ إنّ اللهَ وملائكتَه يُصلّونَ على النبيِّ يا أيُّها الّذين آمنُوا صلُّوا عليْه وسلّموا تَسْليماً ﴾ (الأحزاب : ٥٦)

* * *

الفهـرس

الموضوع

الموضوع	الصفحة

رقم الإيداع ١٩٠٩ / ٩٤

I. S. B. N
977 - 262 - 035 - 9

دار البشير ـ القاهرة
للطباعة والنشر والتوزيع
١٤٥ طريق المعادى الزراعى ص.ب ١٦٩ المعادي . ت : ٣٤٢٦٨٧ـ ٣٥٢٣٩٠